

فنون الأدب العربي

الفن الفصائي

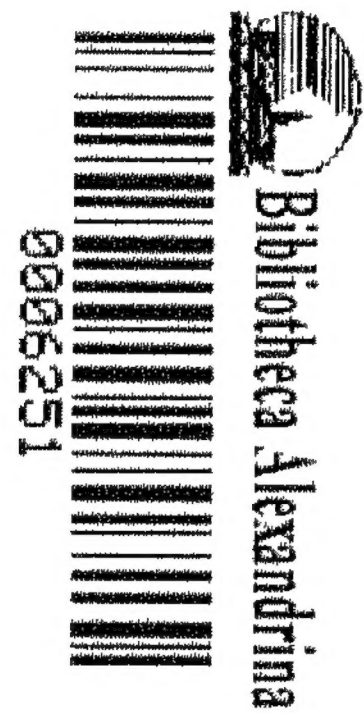
٤

# المدرج

بقلم  
سأحي الدهان



دار المعارف





المبيع



فنون الأدب العربي

الفن الغنائي

٤

# المريخ

بقلم

سامي الزهتان

الطبعة الخامسة



دار المغارق



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### مقدمة

المدح فنّ الثناء والإكبار والاحترام ، قام بين فنون الأدب العربي مقام السجل الشعري لجوانب من حياتنا التاريخية ، إذ رسم نواحي عديدة من أعمال الملوك ، وسياسة الوزراء ، وشجاعة القواد ، وثقافة العلماء ، فأوضح بذلك بعض الخفايا وكشف عن بعض الزوايا ، وأضاف إلى التاريخ — صادقاً أو كاذباً — ما لم يذكره التاريخ ؛ فساعد على إبراز كثير من الصفات والألوان لم تكن تعلم لولاه . وزاد في شهرة أناس كثيرين أحاطهم بالرعاية ، ورفعهم إلى الذروة فجعلهم في مصاف الأعلام ، وأغفل زلاء لهم كانوا أحقّ بالذكر وأجدر بالشهرة ؛ ولكنها المخطوط يوزعها الشعراء ، فينال الثناء بعضاً ويحرم بعضاً ، كما قال يزيد الحارثي :

وإذا الفتي لاقى الحمام رأيته لولا الثناء كأنه لم يولد

ولذلك كان المدح في حضارتنا كالبرقيات التاريخية تشير في اقتضاب إلى الأحداث ولا تسهب في تفاصيلها ؛ شأن الشعر دائماً ، وقد تكون فيها دعاوة وحزبية وشطط وإسراف . ويكون فيها حقّ وصدق وإنصاف ؛ لذلك يجب أن نقف منها موقف النقد والشك والتمحيص ؛ كما نقف من كتب التاريخ سواء بسواء . وسبب ذلك أن الشعر كثيراً ما تغلب عليه العاطفة والخيال . وتدفع إليه الإقطاعات والهدايا والأموار ؛ أو تسوقه السياسة والعصبية والمذهب والدين . والخوف والبطش والرغبة والرهبة ؛ يقال في ظروف خاصة وفي ساعات معينة .

يروج بعدها في الأسماع والقلوب ، ويتمكن من مشاعر الناس ، ويسير فيها في سر ولذة لا تتاحان للتاريخ والمنطق والفلسفة .

وقد كان همّ المادحين في أكثر مدائحهم لارؤساء والحكام أن يجسموا الصفات الطيبة والمزايا الرفيعة والأخلاق السامية ، أو أن يمتدحوها ويأصقوها بالمدوحين ليربحوا في حلبة المديح ، وليرفعوا لواء المدوح بين الناس ، فلعلهم في ذلك كالصحافة الحزبية لعصرنا ، ترى الخير كل الخير عند زعمائها ورؤسائها وقادتها ؛ أو لعلهم كالرسامين المصورين يستطيعون أن يظهروا أجمل ما في الوجوه وأحسن ما في المشاهد ، فيصورون من جانب واحد ، هو جانب الجمال والحسن ، ويخفون المعالم الأخرى بريشة بارعة تصحيح وتلون وتبدع ، وتسلط الأنوار والظلال ، وتتلاعب بها ؛ فالمدح في هذا على عكس الهجاء . وقد استعرضنا ما كان للعرب في هذا الباب فرأيناه كثيراً ضحماً منذ الجاهلية حتى اليوم ، يشكل ديواناً كبيراً وجزءاً خطيراً من أدبنا ، يحتل موقعا هاما ، لأنه يعنى ، فيما يعنى به ، بوصف الرجال وامتداح مزاياهم ، والتمجيد إليهم والتقرب إلى مقامهم بأحسن أسلوب وأبرع صورة .

والمدح كثير الأنواع لا يكاد يحصره تقسيم أو تبويب ، ولا يوفيه كتاب صغير ؛ ولكننا ننشئ للشادين ، فنكتفي بغرض من غرض ؛ ونعرض منه نماذج في مديح الخلفاء والملوك ، ومن أعانهم من أمراء ووزراء ، وقواد ووجهاء ، ومن لمع في الأقطار من علماء وأدباء ، وما كان من المديح الدينية ، والإشادة بفضائل النبي الكريم ، والثناء على أهل بيته والدعوة لهم في الخلافة والحكم ، وما وقع في مديح الأوطان والبلدان والمديح السياسي عامة ، لعلنا نتعرف إلى المثل العليا التي كان يعجب بها شعراؤنا على اختلاف العصور والأوطان .

ونحن لا ندعى الإحاطة والشمول ، فإنها محاولة أولية في باب جديد من أبواب التصنيف والتأليف ، جعلناه في صفحات يسيرة وأسلوب مبسط ، ليكون قريبا من الأذهان لطيف المتناول ، نافعا على إيجازه . والله من وراء القصد

سامي الدهان



## تمهيد

١

### المديح في الآداب العالمية :

منذ فجر التاريخ أحس الإنسان بالفوارق الاجتماعية بينه وبين أخيه الإنسان ، وشعر باختلاف المواهب والقيم عند الناس ، ورأى الأقدار تضع وترفع وتعطي وتمنع ، لذلك سعى إلى رضا مَن فوقه ، وتجميل حياهم بالقول ، فوقف منهم موقف الاحترام والتودد ، فكانت أقواله تعبر عن المديح . وسواء أكان هذا المديح صادراً عن قرارة نفسه أم من أطراف لسانه ، فهو يقرّ بالرياسة والزعامة لمن يتصور أنهم سبقوه بالغنى والشجاعة والقوة والفهم والذكاء . فهو يشترك مع الناس جميعاً في النظر إلى الزعيم والقائد والوجيه والعالم والغنى والسيد والأمير نظرة خاصة ، ويشترك معهم كذلك في مديح هؤلاء حين يعرض له القول أو يتصدى للحديث والبيان شعراً ونثراً .

ولسنا ندري كيف كانت أوائل المديح عند الإنسان الأول ، فقد غابت جذورها مع ظلمات التاريخ . وبقي شيء يسير على الأحجار القديمة تحمل في صفحاتها حمداً وثناء لبعض الأمم ، تشيد بالقواد أو الملوك وتتحدث عن انتصاراتهم ومواهبهم ، وتمنحهم صفات وألقاباً ونعوتاً تسمى في عرف الأدب بالمديح . وأوراق البردى والمسلات والأهرام والقبور تنقل إلينا صيغاً كثيرة لهذا المديح اكتشفت على شطآن النيل وفي صحارى مصر وقصور بابل وتمثال اليونان والرومان ومعابد الهند والصين لا تختلف في عباراتها عن إعلاء شأن الممدوح من بيان شجاعته وسطوته وسيطرته وقوته وذكائه وعظيم فهمه وعلمه .

وسواء أكانت هذه المذائح على ألياف الخيزران أم نسيج الحرير أم أوراق  
النبات أم الأحجار ، فهي تعبر عن نظرة الاحترام . فقد بدأ الإنسان في  
الطبيعة على خوف من القوة والبأس والبطش والهول . لذلك سجد البحر والنهر  
والرعد والثور والفيل والأسد والمطر والشمس والقمر والنار والهواء والجبل وغيرها ،  
فقال عبارات المديح وتوجه بها إلى هذه القوى خاضعاً خاشعاً ومعجباً . فلما أحس  
بوجود الإله خضع لجلاله وانحنى أمام سيطرته وبأسه . فجعل لكل شيء  
إلهاً أول الأمر ، ثم توجه إلى الآلهة بصلواته وعبادته ، وهذه الصلوات والدعوات  
إن هي إلا مديح وتضرع سواء أكانت في التشفع أم التماس الخلاص من  
مرض أو خطر . أم كانت مجرد عبادة خالصة وإحساس عميق .

وفي جدران المعابد بمصر اكتشف العلماء « كتاب الموتى » ، وقرأوا  
فيه من الدعوات والعبادات ما يفيدنا في فهم أدبهم ومديحهم . ومنها : « السلام  
عليك أيها الإله الأعظم ، جئتك يا إلهي متخلياً بالحق متخلياً عن الباطل ، فلم  
أظلم أحداً ، ولم أسلك سبيل الضالين لم أحنث في عيني ، ولم تضلني الشهوة  
فتمتد عيني لزوجته أحد من رجمي ، ولم تمتد يدي لما لا ينبغي ، لم أقل كذباً ،  
ولم أكن لله عاصياً ، ولم أسع في إيقاع بعبد عند سيده » .

وفي هذا الدعاء اعتراف بإله الحق ، وخشوع له وخضوع لجلاله ، وفيه  
نظرة القداء إلى الرجل الصالح في الدنيا ممن يستحق الثواب ، فهو من لا يظلم  
ولا يحنث ولا يخدع ولا يسرق ولا يكذب ولا يخالف الوعد ، وهي صفات ظلت  
على الزمان موضع المدح منذ عهد المصريين إلى اليوم . لم تتغير ولم تتبدل .  
فالفضائل هي الفضائل والمزايا هي المزايا .

وفي الأدب المصري هذا . . . . . اكتشف العلماء كذلك على ورق البردي  
شكاوى الفلاح وقد توجه إلى سيده بقوله : « يا سيدى يا عظيم العظماء ! يا أغنى  
الأغنياء ! ومن ليس فوقه إلا عظيم أعظم ، وغنى أغنى . . . . . إن لسانك لسان  
الميراث وفمك شفيتك ذراعاه ، فإذا لم تعدل فمن يكبح الشر ؟ . . . . . يأياها

المدير العظيم ، لا تحرم من فقيراً مثلي من ملكه فقال الفقير نفسه ، ومن اغتصبه كتم نفسه » . وفي هذا القول من الخضوع والخضوع ما يشبه أقوال كثيرين عاشوا بعد هذا الفلاح عدة قرون يستجدون الملوك والأمراء والأرغماء بمدح يشبه هذه الصيغ كأن الزمان لم يتغير ، أو كأن المعاني لم تتبدل .

وفي الآداب الصينية والهندية مثل ما كان عند الأمة المصرية القديمة من نظر إلى الزعيم الكبير والإنسان الكامل والمثل الرفيع ، تجدها في كتبهم الدينية وملاحهم التاريخية ، مثل كتاب كونفوشيوس أو « ماها بهارتا » أو « رامايانا » ويسيطر على كثير من صفحاتها روح الإكبار والاحترام وتعابير المدح والتقدير . وكان في الأدب الفارسي القديم ما لآداب الصين والهند من روعة الحب والاحترام ، فقد آمن « زرادشت » في كتابه « الأستا » بإله واحد عظيم ، وسطر لقومه صفات الرجل الكامل ، وبين الصلاح والفساد والخير والشر ، ونهى عن الاعتزاز بالحسب والنسب ، وإنما ساق الشعب إلى العمل والجد .

وفي التوراة والتلمود خشوع وخضوع الملك الملوك ، ودعوة كذلك إلى تقديس البطولة وإكبار الزعامة ، وقصص كثير عن الأقوياء . وفيها صلوات لإله البشر . وفي مزامير داود صلاة تتوجه إلى الله هذا بعضها : « أنت مالك كل أمري ، لأنك واضعى بيدك في بطن أمي ، أحمذك وأشكرك فقد أتيت بالأعاجيب في خلقي ، كونت عظامي في الخفاء ، وصنعتني على عينك وقدرت أهوري في كتابك . . . أنا لا أحصى نعمك فهي أكثر عدداً من الرمل » . وهذا مدح ديني اقتبس منه المادحون والشعراء صوراً وتعابير تراها في ثنايا الكتاب .

وفي الآداب اليونانية أساطير تشبه ما جاء عن أمم الأرض في أساطيرها فهي تعد الآلهة قوى عظيمة سحرية تعدو حدود العقل والخيال معاً ، وتقص سير الحروب وانتصارات الأبطال ، وتمجد الشجاعة والبطولة والخلق الراجح وتشيد بالخير والعدل والحق ، وقد خلف القوم ملاحم كبيرة كما خلف الهنود والفرس ، فاشتهرت الإلياذة والأوديسة بوصفهما للمعارك والمجازر ، وإبداعهما

في رسم الجيوش المحاربة حتى لقد قصرت عنها الأهم في ذلك ، فوصفت الإلياذة أتباع « أخيل » في الحرب فشبهتهم بدئاب في قلوبها بأس شديد عادت بعد أن نهشت وعلاً وفي أنيابها بقية من دماء ، ثم ازدحمت على الماء لترتوى ، فلما امتلأت بطونها وقفت تنفث الرعب ، قال هوميروس : « لو رأيت هذه الدئاب فقد رأيت رجال أخيل العظيم قوة ومظهراً حين دعاهم الداعي لهذا القتال الخيف » . وهذا مديح لأخيل ورجاله في الإلياذة نقع على مثله في الأوديسية وفي الشعر الشعبي للإغريق ونثرهم وأناشيدهم ومسرحياتهم ، فيه المثل العليا كالشرف وسمو الخلق والبطولة والكرم ؛ وتلمح له شبيهاً كذلك عند الرومان وملاحمهم اللاتينية ، فقد وصفوا المعارك والحروب والأبطال والشجعان ، وامتدحوا مواقفهم المثيرة ، ومنجوا ذلك بإشراك عناصر الطبيعة ، ورسموا ما كان يثير الخوف منها ، وبسطوا موقف الفرسان من حرب الإنسان والطبيعة .

ولما كان القرن الخامس عشر للميلاد في الغرب ، قام الإنكليز برسم الرجال وامتداح الأبطال ، ونهض الفرنسيون في الجنوب ينشدون المديح على إيمان شعراء التروبادور ، وهم من طبقة الفرسان والسادة الأشراف ، وقد قلدوا في كثير من المديح شعراء الأندلس من العرب ، فصوروا البطولة والشجاعة والكرم . ونشأ كذلك في شمالي فرنسا شعراء المغامرة يرسمون البسالة ويصفون الشجاعة في ملاحم قوية فيها أمجاد الرجال وكرم الأخلاق . ولم تتخلف ألمانيا عن فرنسا وإنكلترا وأسبانيا في هذا الميدان ، وإنما نظمت في مديح الأبطال وسير الزعماء والقواد والملوك ما يشبه الإلياذة والأوديسية .

وظل أدباء الغرب ينسجون على منوال أجدادهم في الأساطير ورسم الأبطال حتى كثرت المسرحيات والدواوين في مديح الزعماء والملوك والقواد والكتاب ، مما يطول بيانه وحصره والتعرض له في هذه الصفحات القليلة ، فقد أحيوا مسرحيات القدماء من اليونان والرومان ، وأعادوا قصص الفرسان والهند ، فوصفوا البطولة والشجاعة ، واستفادوا من أشخاص التوراة ومعارك الأمم القديمة وقوادها ، فكانوا في المديح كما كان أولئك ، ولكنهم برزوا في المديح



القومي مما نسميه « الحماسة » ولها كتاب غير هذا يعرض لهم ويفصل الأمر فيهم .

### المديح في الأدب العربي :

بسطنا ما كان للأمم القديمة في الشرق والغرب من أدب في المديح ، ورسمنا في عرض سريع تقديس الآلهة وتكريم العظماء وإكبار الزعماء والملوك والقواد والعلماء ؛ وذكرنا ما كان منها خالصاً للدين وما كان منها للدنيا ، ورأينا أن الأمم جميعاً تشترك في خطب الود عند الأقوياء وإظهار أيادهم وصفاتهم ، وما لهم من خلق رفيع وشجاعة نادرة وتفوق كبير . وسننظر الآن إلى العرب كيف كانوا يرون الصفات المثلى والفضائل البارزة في ممدوحهم ، ومن أين يأتيهم الإعجاب ويبلغهم التقدير ليرسموا مديحهم وإعجابهم وتقديرهم في قصائدهم .

لقد قامت في قبائل العرب حروب واستعرت بينهم وبين جيرانهم معارك ، نثارت حرب البسوس قبل الهجرة بنحو قرن ونصف القرن ، وأتانا شعر كثير نسب إليها ، وقيل فيها ؛ وجاءتنا كذلك أشعار أيادهم ودا كان من مديح لأبطالهم وزعمائهم ، فقد كانت حياتهم تسود رؤساً وتملك زعماً وترفع قائداً . وكانت الأديان المختلفة عندهم تبعث على العقيدة بوجود إله يذكرونه في شعرهم ويتوجهون إليه ضارعين خاشعين ، فكانت الأسباب إذاً متوافرة لخلق المديح ، وكانت الموضوعات متيسرة في المديح الديني والسياسي والاجتماعي كما توافرت عند غيرهم من الأمم ، ولكنها زادت عندهم بسبب الفقر المدقع في هذه الصحراء القاحلة ونضوب موارد الرزق وفقد الصناعات ، وندرة البساتين والغياض ، وشح المياه ؛ فكثر المحتاحون وقل الأغنياء وعم الدماء نظرة خاصة إلى الإحسان والرفق والعون وحماية الجار لا نراها عند غيرهم من الأمم بمثل القوة التي استولت على نفوسهم ، لذلك كثر القتال في سبيل الحياة ، وتنوعت أساليب البطولة والبسالة من خروج في القفر ، وصراع لوحش البر ، وقتال للأعداء والمغيرين واللصوص . وسارت في القبائل سيرة الكرماء والأجواد والسادة الزعماء والوجهاء

والمصلحين . فلما رحلوا قبل البعثة المحمدية إلى الشام وأطراف العراق رأوا عند إخوانهم ملوك العرب ما يشجع على الكسب والترف والنعم ، فعاش شعراؤهم على مقربة من هؤلاء الأمراء يتناولون من هداياهم ويتناولون بشعرهم عطايا وجوائز ، فكان مديح الملوك ، وكان المديح السياسي على شكل قبلي ينتهرون للناسنة حيناً وللمناذرة حيناً ، ويضيفون بذلك إلى ديوان المديح قصائد خالدة من غرر الشعر . وظهر الرسول الأعظم فانقسم العرب في اتباعه ، ووقف فريق معه وفريق راح يناضله ؛ فنشأ شعر ديني إسلامي في المديح يشيد بالرسالة والدعوة والرسول ، ويكبر الخلق الرفيع والبطولة الخارقة ويبشر بالدين الجديد فيمدح مزاياه ، ويمهد الطريق للشعراء الإسلاميين بعده على مدى القرون في امتداح الإسلام والنبي الكريم . ولما كان الفتح وانتقل المسلمون إلى الشام نقلوا عصبيتهم وزعامتهم القبلية فانصرفوا إلى حروب مذهبية ودينية وسياسية ، وأكثروا فيها من ذكر الأبطال والقواد والملوك والأمراء ، وغذاهم خلفاء الأمويين بالذهب فانبسطت رقعة المديح السياسي والاجتماعي والديني . ولما انتقلوا إلى العراق كثرت هذا المديح وتنوع ؛ فدخل الترف وولدت طبقة ناعمة غنية وطبقات متوسطة تعيش بقربها وتستفيد من جوارها ونعمها ، وطبقة بائسة لا تصل إليها ولا تبلغ مجالها ، فتمدح من فوقها وتثنى على من ينعم عليها ؛ أو تتحرق بمديح لعله يبلغ إلى المسامع والآذان ، وكان الشعراء في الطبقة المتوسطة تتقرب وتمدح وتتصل بالسياسة حيناً وبالمذاهب الدينية والاجتماعية أحياناً ، وتثنى إلى ذلك على القواد والعلماء والوجهاء .

وتفرقت بعد ذلك دول الإسلام شيعاً ، وتقسم الملوك مناطق العالم الإسلامي ، فازدادت موارد الرزق أمام الشعراء وتفتحت أبواب المديح لكثير منهم ، فزادت الوظائف - كما نقول اليوم - وأصبح لكل شاعر أن يطمح في أن يسافر إلى أمير يكفيه ، أو ملك يلبيه ، أو قائد يحميه . وامتألت دواوين المديح بقصائد طويلة ، اخترع الشعراء فيها حيناً ووقف خيالهم أحياناً ، فقد ألم إخوانهم قبلهم بكثير من المعاني ؛ وضائق سبل الاختراع فأعادوا الصور

والتراكيب ، وتضاءلت ينابيع المديح ونحف معينه ، فلن يرتوى الشعراء من بحر خضم كما كانوا ، ولذلك ألحوا على القديم وبدلوا في مبانيه وصوره ، وأعادوا وكرروا حتى سقط المديح البليغ ، كما سقط العالم السياسى للإسلام فى ظلمات داجية . فلما كان القرن العشرون عادت جذوة المديح إلى النفوس ونشأ فى مصر شعراء حول الملوك والخلفاء يتجهون حيناً إلى قصور الآستانة وحيناً إلى قصور القاهرة ، أو يترددون حول الوجهاء والزملاء والعلماء ، أو يطرقون أبواباً جديدة فى امتداح البلدان والأوطان ، وما زالوا كذلك إلى اليوم ؛ وسيظلون كذلك فى الأقطار العربية ، ما دام الشعر وحده لا يروج إلا عند ذى سلطان أو ينفق عند ذى وجاهة ومكانة ، فهو اليوم كما كان من قبل وساطة للمال والرفعة والشهرة ، يقوم عند صاحبه مقام الأسرة والقوة والشهادة العلمية ، لذلك جعله كثير من الشعراء سبيلاً لمكانة سياسية أو نيل كرسي فى الحكم . فالآذان ما تزال سليمة تقود المديح وتكبر الشعر المتين ، وتعرف أن نخبة الشاعر فى مديحه تدفعه إلى لون آخر من الشعر هو الهجاء ، وهناك الطامة الكبرى والتشهير أو الفضيحة ، والعقل من ابتعد عن لسان الشر أو اشترى الحمد والثناء والمديح وسنسط ألوان المديح فى الأدب العربى كما تقاب على العصور الأدبية كلها ، ناظرين إلى نوعه فى تصنيف جديد ، نعهده محاولة فى تقسيم أبواب المديح ، آملين أن لا نجانب الصواب فى فهمه وعرضه وتحليله ، لعلنا نبليغ الفائدة المرجوة من كتب هذه السلسلة التى تهدف إلى البساطة واليسر فى الإحاطة بفنون الأدب العربى ، من غير أن تفوتها الدقة والعمق فى البحث والدراسة . ونحن نبدأ بمديح الملوك والخلفاء لأنه أكثر الشعر كمية وعدداً فى ديوان العرب ، ثم نتبعه بمديح الأمراء والوزراء والعلماء والأدباء ، وننتقل بعده إلى المديح الدينية فالسياسى ، حتى نصل إلى نهاية المطاف . وهما أن نشير المشاكل ونكثر من الافتراض وطرح الأسئلة ، لعل شبابنا يتساءلون فى كل ما يقرءون عن الأسباب والدوافع والنتائج ، فتكون قراءاتهم نافعة عميقة مفيدة لذيدة .

## الفصل الأول

### مديح الملوك والخلفاء

أعجب الشاعر العربي بانخلق الحميد والرأى السديد والشجاعة الفائقة والكرم الواسع ، كما أعجب بها غيره من شعراء الأمم القديمة والحديثة ممن قرأنا أمرهم في التمهيد ؛ لذلك أثنى على الرجال المتفوقين والشجعان المشهورين والقواد العظماء والرؤساء المسودين ، وامتدح المثل العليا التي رآها عندهم ، ولكنه نظر إلى الملوك ومن يليهم منذ فجر الجاهلية نظرة إكبار واحترام لما بين عيشه وعيشهم من بون شاسع وفرق واسع ، ولما بين بيته الصغير وقصور أولئك من مدى يهر الطرف ويسحر اللب ؛ وقد رأى بأم عينه ما بين حياته الفقيرة وحياة الملوك من اختلاف أخذ بمجامع قلبه وحرك لسانه بالإعجاب . ولعل العربي تأثر أول الأمر بنظرة الفرس والروم إلى ملوكهم ، فقد كانت الأمتان تضعان الحواجز والسدود والحراس والجنود دون البلوغ إلى قصور الملوك والأدراء ، وكان اللخميون في العراق والغساسنة في الشام يتأثرون ما وسعهم هاتين الأمتين بالمظاهر والمفاخر ، ويقلدون مراسيمهم وأعيادهم تقليداً يثير إعجاب القادم من الصحراء ، ويسيل لعابه وبضطره إلى الحديث والفخر والمدح . ونسارع إلى القول بأن الإسلام سعى إلى محو هذه النظرة ، فقام الخلفاء الراشدون بالملك الزاهد والحكم الديمقراطية ، وقلدهم بعض الخلفاء ، لكن أكثرهم عاد إلى النظرة القديمة المتأصلة فنافس الفرس والروم ، وبداهم في بعض الأحيان بالمظاهر والمراسم ، كما أحيا النظرة القبلية في السياسة والوراثة والحكم ؛ وقال الشعراء المداحون في الإشادة بهذا كله فرسموا ما كان عليه هؤلاء الخلفاء والملوك منذ الجاهلية حتى العصر الحاضر . ففي الجاهلية قام النابغة الذبياني بزيارة الملوك في الشام والعراق ، فرأى صور الأبهة والترف والفخامة التي كان يعيش عليها هؤلاء الملوك ، وعاد بصور



تعبّر عن حبه لهذه الربوع واحترامه لسانيتها ، فإنهم ملوك ولكنهم مع ذلك  
إخوان كرماء يحكمون العربى الشقيق الضيف فى أموالهم ، ويقربونه فى ضيافتهم  
فيشعر أنه ربّ المنزل وأنه انتقل من أهل إلى أهل على ما بين الحجاز والشام  
من فرق واختلاف .

ولقد دهش النابغة لما رأى فتخيل أن البناء هناك من صنع الجنّ ، فعيناه  
لم تشهدا قبل « تدمر » أعمدة صاعدة إلى السماء وعمارة شامخة إلى العلا كما  
شهدتا خلال الزيارة ، لذلك رأى للنعمان فضلا على الناس كلهم ، وجعل  
له الطاعة والحب ، واعترف بأنه يهب المائة الأبرار ، فلما أراد أن يصف  
جوده امتدحه بأنه أشد من سيل الفرات حين تمده الأودية فيزجر ويخيف :

فما الفُراتُ إذا هبَّ الرياحُ له      ترمى غواربُهُ العبرين بالزبد<sup>(١)</sup>  
يمدُّه كلُّ وادٍ مُترعٍ لجبٍ      فيه ركامٌ من الينبوت والخضد<sup>(٢)</sup>  
يظلُّ من خوفهِ الملاحُ مُعتصِماً      بالخيزرانة بعدَ الأين والنجد<sup>(٣)</sup>  
يوماً بأجودَ منه سيبَ نافلةٍ      ولا يحولُ عطاءُ اليومِ دون غدٍ<sup>(٤)</sup>

فأنت ترى هذه الصورة الخلية التي صنعها النابغة ليرسم كرم النعمان إذ  
رسم الفرات فى أكمل ما يكون امتلاء ، فإذا عصفت به الرياح هاجت أمواجه  
وزادتها هيجاناً بما يترامى إليها من ركام الشجر حتى ليخاف الملاح الماهر ،  
فلا يستطيع تسيير سفينته إلا بحذر بالغ ، فيعتصم بذنب السفينة ويلقى فى  
سبيل ذلك عناء وعنتاً قويين . وكل هذا ليقول إن جود النعمان كالنهر بل هو

(١) الغوارب : الأعالي من الماء والأمواج .

(٢) الركام : الحطام المتكاثف - الينبوت : شجر الحشخاش ، وما تخضد : أى تكسر  
من الأشجار - يمد ماؤه : أى يعلو .

(٣) الخيزرانة : ذنب السفينة - الأين : الفتور والإعياء - النجد : العرق والكرب .

(٤) النافلة : الزيادة فى العطاء - يحول : يمنع .

أشد من نهر الفرات وأقرب إلى البحر في هديره وأمواجه وعنفه وقوته . وهذه الصورة الشعرية تُلَبِّسُ عليها الشعراء في المديح ورسم الكرم والجود والمطاء ، فبعضهم قلدها ، وبعض أضاف إليها ، فلم يخرج كثير منهم عن تشبيه الكرم بالبحر والجود بالموج المزبد .

وقد طلع علينا النابغة بصور كثيرة للمديح ، فاتخذ سبيله إلى تشبيه مليكه بالليل الذي يدركه أنى كان ، وشبهه بالربيع المنعش كذلك :

وَأَنْتَ رَيْبِعٌ يَنْعِشُ النَّاسَ سَيْبُهُ      وَسَيْفٌ أَعِيرَتْهُ الْمَنِيَّةُ قَاطِعُ  
أَبَى اللَّهِ إِلَّا عَدْلُهُ وَوَفَاءُهُ      فَلَا النُّكْرُ مَعْرُوفٌ وَلَا الْعَرَفُ ضَائِعُ<sup>(١)</sup>  
فإنعمان ربيع يقبل بالجمال والزهرة والنور والبركة والنثر ، فهو خير كاه وهو مع ذلك مخيف لأعدائه كسيف قاطع أعارته المنية حداثتها الباتر . والشاعر يقول بأن العرف لا يضيع بين الله والناس .

واستعار النابغة صورة أخرى لمديح مليكه ، فشبهه بالشمس بين الكواكب لمكانه بين الملوك وارتفاع قدره على أقدارهم فقال :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَعْطَاكَ سُورَةً      تَرَى كُلَّ مَلِكٍ دُونَهَا يَتَذَبَذَبُ<sup>(٢)</sup>  
بِأَنَّكَ شَمْسٌ وَالْمُلُوكُ كَوَاكِبُ      إِذَا ظَلَعْتَ لَمْ يَبْدُ مِنْهُمْ كَوْكَبُ  
وهكذا سن النابغة للشعراء سنن المديح الرسمي حين يتطلعون إلى الملوك ، فقال في مليكه إنه بحر طامى الجود ، وإنه ليل يبسط رداءه على الوجود ، وإنه شمس بين الكواكب ، وإنه ربيع ينعش النفوس كما ينعش المطر الأرض الظمأى ، وإنه سيف بتار مهيب . ولذلك قال النقاد إنه أول الاحتراف في المديح . ورأى فيه بعضهم صحافياً لعصره يُعِيرُ قلمه لكل من يجود عليه أو يحمي حماه ،

(١) النكر : المنكر - العرف : المعروف .

(٢) سورة : نزلة ونسب .      رى : صورة - يتذبذب : يضطرب .

أو يظله بجناحه ، فيرفع من قدره بمدححه ويصوره في احترام وحب وخوف وفخامة ؛ ويجعله فوق الناس وأعلى الملوك . وبذلك يختلف عن زلاته الجاهليين كأمريء القيس والمهلهل وغيرهما حين قالوا المديح عن حب عميق وشعور صادق واعتراف بالواقع ، فلم يتملقوا ولم يتزلفوا لأنهم لم يتكسبوا بشعرهم ولم يحترفوا بمدحهم . وقد لاحظ المستشرقون أنه خلق في الأدب العربي ما يسمى بأدب الملوك أو الشعر الأرستقراطي ، لأنه يحيط الملوك وحدهم بالدعاية والرعاية ، وينسى الشعب وعامة الناس من الذكر والعناية ، فلا يعيرهم . وكاناً من المديح ولا يلفت النظر إلى أعمالهم ، فكان الدنيا تعيش لهم وبهم ؛ أو كأنهم يملكون كل شيء في الأمة لا يذكر إلى جانبهم أحد ، وهم السادة وغيرهم العبيد ؛ ويبدو أن هذه النظرة قد تبدلت قليلاً خلال عصورنا الأدبية ، فاتخذ الشعراء من رعاية الخلفاء والملوك لشعوبهم وقبائلهم موضعاً للمديح والإطراء ، أو نحييل إليهم أن ذلك قد وقع فاستحقوا المديح .

والأعشى سار على سنن النابغة في المديح ، ولكنه انحط إلى درك المسألة والتكسب المشين ، فمدح كل من أعطى ، وشكر كل من أكرم ؛ فقال يمدح الأسود بن المنذر اللخمي ، وهو من إخوة النعمان بن المنذر ملك الحيرة ، فرأى فيه الحزم والحذر وصلة الرحم والشجاعة والقوة فقال فيه :

عِنْدَهُ الْحَزْمُ وَالتَّقَى وَأَسَا الصُّرْعُ ع ، وَحَمْلٌ لِمُضْلَعِ الْأَثْقَالِ (١)

وصلات الأرحام قد علم النا س وفك الأسرى من الأغلال

وهوان النفس العزيزة للذك ر إذا ما التقت صدور العوالي

وعطاء إذا سألت إذا العذ رة كانت عطية البخال (٢)

(١) التقى : الحذر - أسا البخرج : داواه - الصرع : داء يبطل الحس ويمنع الحركة ،

وهو التيه والكبر .

(٢) العذرة : المعذرة .

ووفاء إذا أجرت فما غر ت حبال وصلتها بحبال<sup>(١)</sup>  
 أَرِيحِي صلت يظل له لقو م ركوداً قيامهم للهلل<sup>(٢)</sup>  
 فالمدوح يجمع بين الصفات المثلث التي يحبها العربي ، يصل الرحم ويفك  
 الأسير العاني ، ويهين نفسه في سبيل المجد وطيب الذكر إذا تصاولت الرما  
 وعلا الغبار ، ويجير إذا انقطع الحبل بالفقير المستغيث ؛ وهو قوي يسكن له الناس  
 كأنهم ينظرون إلى الهلال . فالأعشى ذكر الشجاعة والكرم في مدحه للأسوأ  
 وأطال في مدحه وفصل حتى أدان له الرقاب ، وجعله يغزو كل عام ، ويصل  
 الخيل بالخيول ، ويتدفق على حومة الوغى ، ويسقى الكتائب من كأس هجوم  
 ويجير المستجير ؛ فهو في هجماته يذهل الشيخ عن بنيه ، ويشرد الإبل  
 فتوغل في الرمال ويملك النواصي في القتال ، ويواصل الجرب شتاء وربيعاً ،  
 فيبحث الذل في الأعداء ، ويعيد المجد إلى الأصدقاء ، ويحمل لواء الظفر والنصر .  
 ومدح حسان بن ثابت ملوك الغساسنة وأمرأهم ، ووصف نعيمهم وترفعهم ،  
 ورسم ما كانوا يلبسون ويرتدون ، وذكر ديارهم العامة بالكرم والجمال ، فقال فيهم :  
 يَمْشُونَ فِي الْحُلَلِ الْمَضَاعِفِ نَسْجُهَا مَشَى الْجَمَالِ إِلَى الْجَمَالِ الْبُزْلِ<sup>(٣)</sup>  
 أولاد « جَفْنَةَ » عِنْدَ قَبْرِ أَبِيهِمْ قَبْرِ ابْنِ مَارِيَةَ الْكَرِيمِ الْمُفْضِلِ<sup>(٤)</sup>  
 يَغْشَوْنَ حَتَّى مَا تَهْرُ كَلَابِهِمْ لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمُقْبِلِ<sup>(٥)</sup>  
 يَمْشِقُونَ مَنْ وَرَدَ الْبَرِيصَ عَلَيْهِمْ « بَرَدَى » يَصْفَقُ بِالرُّحِيقِ السَّلْسِلِ<sup>(٦)</sup>

(١) حبل غرر : غير موثوق به .

(٢) الأريحية : الارتياح لفعل التلى والحدود - صلت : ماض - ركود : لا يتحركون .

(٣) الحلل : ح حلة وهي الرداء - البزل : ج بازل وهو البعير إذا استكمل الثامنة وطقن

في التاسعة .

(٤) جفنة : أبو ملوك غسان في الشام .

(٥) يغشون : لا تخلو منازلهم من الأضياف .

(٦) البريص : نهر بدمشق ، وبردَى نهر آخر فيها - يصفق : يمزج - الرحيق :

الحمير البيضاء - السلسل : اللينة .

فهم يمشون في ثياب مضاعفة النسيج ، وهم آمنون لا يبرحون ولا يخافون كما تخاف العرب ، لا ينتجعون ولا يتخففون إلى مكان آخر ، ومنازلهم مفتوحة للأضياف والطراق والعفاة حتى لتأنس كلابهم بالقصاد فلا تهرّ على أحد ، لا يسألون من يقبل عليهم أو يؤم ديارهم ، فهم في خفض من العيش يستضيفون كل من يمرّ بساحتهم . ومثله الخطيئة ، فقد مدح عمر بن الخطاب طمعاً في عدالته ورجاء بقضاء حاجة يطلبها ، فرأى فيه أمين الخليفة بعد الرسول وأوفى قریش جميعاً وأطولهم في الندى بسطة ، وأفضلهم فعلاً .

وأما الأخطل ، فقد كان شاعر الخلفاء ، وشاعر بني أمية كلها ، مدحهم واستدرّ جودهم وعطفهم وحبهم ، وكان يبدأ مديحه بالأسلوب القديم على عادة أقرانه ، ثم ينتقل منه إلى الممدوح فيقول في الخليفة عبد الملك بن مروان :

الخائفُ الغمر والميمون طائرُهُ      خليفةُ الله يُستسقى به المطرُ<sup>(١)</sup>  
 وما الفرات إذا جاشت حوالبُهُ      في حافتيهِ وفي أوساطهِ العُشرُ  
 ودغذغته رباح الصيْف واضطربت      فوق الجأجى من آذيه غدرُ<sup>(٢)</sup>  
 مسحنفٍ من جبال الروم يسترهُ      منها أكافيف فيها دونه زورُ<sup>(٣)</sup>  
 يوماً بأجود منه حين تسأله      ولا بأجهر منه حين يجتهرُ<sup>(٤)</sup>

فالخليفة شجاع يخوض الحرب ، ميمون النقية ؛ وهو في كرهه أشد سعة من الفرات إذا جاشت أمواجه واصطفقت أواذيه ، وسقط منحدرًا من جبال الروم في سرعة وهول . وهذه الصورة تذكرنا بما قال النابغة في الفرات حين

(١) الغمر : الماء الكثير .

(٢) دغذغته : فرقته - آذى : موج - جأجى : صدور - غدر : ج غدير .

(٣) المسحنف : السريع الجرى - أكافيف : مناكب - زور : ميل .

(٤) الجهير : الرجل الرائع الجسيم .



وصف الجود عند مليكه . ويسير الأنخل بعد هذا في وصف الشجاعة والكر  
فشبهه بالليث يتقدم مائتي ألف من الجنود ، لا يشبههم إنس ولا جان ، فيغش  
الوغي بنفس لا تهاب ، ويهدم الأسوار والقناطر ، فلا تقفه حدود ولا سدود  
لأنه من قريش وقريش سادة العرب في الذروة من الخلق الكريم والجود الواسع والبطور  
النادرة . وهو حين مدح يزيد بن معاوية والوليد قال فيهما مثل ما قال  
عبد الملك ، فهو خليفة يستسقى بسنته الغيث ، شديد الهيبة ، عظيم البأس  
أسقاه على ظمأ ولم يحرم سائله ، فياض العطاء .

والفرزدق مدح خلفاء بني أمية ، ورأى قوتهم في الخلافة ، وأعجب  
بشجاعتهم فهم أبطال منصورون وكرماء مشهورون ، فقال في هشام بن عبد الملك  
يرجو الندى على يديه :

﴿ جَزَى اللَّهُ خَيْرًا مِنْ خَلِيفَةِ أُمَّةٍ إِذَا الرِّيحُ هَبَّتْ بَعْدَ نَوَّءٍ جَنُوبُهَا <sup>(١)</sup>  
فَهَبَتْ لِي سَجَلًا مِنْ سَجَالِكَ يُرُونِي وَأَهْلَى إِذَا الْأَوْرَادُ طَالَتْ لَوُوبُهَا <sup>(٢)</sup>  
وَكَمْ أَنْعَمْتَ كَفًّا هِشَامَ عَلَى أَمْرِي لَهُ نِعْمَةٌ خَضِرَاءُ مَا يَسْتَشِيْبُهَا  
فهو يلتمس دلوًا من دلاء ممدوحه ، وخيرًا من خيراته ينعم بها مع الأهل إذا  
أجدبت الأرض وقل الرزق . وكم هشام من نعم خضراء على الناس ، وبذلك  
يبين الشاعر عن حاجته إلى العطاء ووضعها من الاستجداء ، ويشكر للمنع ماله  
وأياديه ، يستعطفه ليعطى ويثنى عليه لكرمه . والشاعر يصف الوليد بن عبد الملك  
بالبدر ويجعل أمه الشمس ، ويمتدح انتسابه إلى لؤي بن غالب ، فيقول :

﴿ تَصَعَّدَ جَدًّا بِالْوَلِيدِ إِلَى الَّتِي أَرَى كُلَّ جَدِّ دَوْنَهَا يَتَصَوَّبُ

(١) النوء : إذا ناء النجم ، فلم يكن في نوءه إلا الريح ولم يكن فيه مطر .

(٢) السجل : الدلو - الأوراد : ج ورد ، وهي الإبل ترد الماء - اللؤوب : العطش .

أرى الثقيلين الجن والإنس أصبحا      يمدّان أعناقاً إليك تقربُ  
وما منهما إلا يرجى كرامة      بكفيك أو يخشى العقاب فيهربُ  
وما دون كفيك انتهاء لراغب      ولا لِمُنْأَهُ مِنْ ورائك مذهبُ  
فالجن والإنس تمدّ أعناقاً إلى الوليد رجاء الخير والتماس الندى ؛ فكفاه  
لا يحيد عنهما راغب ولا يذهب عن الطلب منهما ذاهب ، وهذا كرم مستفيض  
يظهره الشاعر ويشهره . والنقاد يذهبون إلى أن مديح الفرزدق لم يكن عن  
إخلاص وحب ، وإنما كان تقليداً وواجباً ، يخلطه بالتفاخر والاعتزاز  
والتعظيم ، ويكسوه بالسؤال وطلب العطاء ، فقد هجا هشاماً ثم مدحه حين  
أصبح خليفة المسلمين .

وجريّر مدح عبد الملك بن مروان ، فاستجدى واستندى وتكسب كذلك  
فجعل الكرم أهم صفات الممدوح ، وقدّم بين يدي ذلك غزلاً ونسيباً أو وصفاً  
على عادة القدماء ، فقال فيه :

— أَغْنَيْنِي يَا فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي      بِسَيْبٍ مِنْكَ إِنَّكَ ذُو ارْتِيَا حِ (١)  
فإني قد رأيتُ عليّ حقاً      زيارتي الخليفةَ وامتداحي  
سأشكرُ أن رددتَ عليّ ريشي      وَأَنْبَتَ القوادمَ في جناحي  
أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المطايا      وَأَنْدَى العالمين بطون راح ؟  
فهو يطلب إليه الغوث والكرم والسيب ، ويرجو أن يكسو عريه وأن  
يثبت قواده ، فهو كالطير إن لم ينجده لم يطر بين العالمين بذكر أو بشعر ،  
وانتهى إلى أن بنى أمة خير العالم وأنهم أندى الأقسام بطون راح ، وهذه  
الصورة أعجبت النقاد وأطربتهم ، فرأوا فيها أجمل الصور وأبدع التعابير في هذا  
الباب ، فكان البيت أطيب ما عرف العرب في المدح ، لأنه رفع ممدوحه فوق العالم

(١) الارتياح : التحرك للعطاء والمشاقة له .

وجعلهم أحسن الناس . وشاعرنا مدح هشاماً بمثل هذا ، وطلب منه المال لينقذه من همومه فقال :

تَعَرَّضْتُ الهمومُ لنا فقالتُ      جعادة أي مُرْتَحَلُ تريدُ  
فَقُلْتُ لها الخليفة غير شك      هو المهديّ والحكم الرشيدُ  
وتبدأ منكم نعم علينا      وإنْ عُدْنَا فمنعكم مُعيدُ  
تزيدون الحياة إلى حباً      وذكر من حبائكم حميدُ  
لو أنَّ الله فضَّل سَعَى قَوْمٍ      صَفَتْ لكم الخلافةُ والعُهودُ

أرأيت إلى الحاجة كيف تسوق الشعراء إلى أبواب الخلفاء ، لعلهم ينالون من نعمهم ، فإذا بلغوا وطهرهم زادت الحياة إليهم حباً ، وفرحوا بالنوال فأشادوا بالخلافة وجدّوا لها عهود الحب والوفاء ، فإذا رأيت مديحاً فاعرف أن وراءه يداً أسداها الخليفة إلى الشاعر ، أنقذه من بؤسه أو خلصه من حبسه أو أقطعه إقطاعاً ، فحجب إليه الدنيا وحرك لسانه بالثناء والشكر .

وهكذا نرى أن العصر الأمويّ كان كالعصر الجاهلي في المديح ، أشاد بالكرم عند الخلفاء وأثنى على الشجاعة ، وسعى إلى المال ، وتكسب لينال ، ويحظى بالجوائز والعطايا .

## ٢

فإذا انتقلنا إلى العصر العباسي رأينا الشعراء يمتدحون ويتكسبون كذلك بشعرهم يرجون النوال والعطاء . ولكنهم زادوا في معاني هذا المديح وصوره ، ما يتلاءم مع الحضارة العباسية والحياة الاجتماعية الجديدة ومواسم الخلافة والملك وأعياد البلاط ومناسبات الحرب والسلام ، وأضافوا على المعاني القديمة صوراً براقية



تصف هؤلاء الخلفاء بما يتناسب وحاجة الملك الجديد ، فالخليفة على كرمه وشجاعته وبأسه وقوته وإشراق جماله وصورته ، يجب أن يكون نظيف الأعضاء جميل الملابس ينثر الطيب والعطور بين يديه ، يصلح الفاسد ، ويمنع الفاحشة ويأمر بالعدل والإحسان ، ويتعلق بالدين ، ويتبعد عن الرشوة وبيت المال ، ويقف من الشعب موقف العادل الأمين يجمعهم على حبه والإخلاص له ، ويقوم بسداد أمورهم فيدفع عن ثغورهم الأعداء ، ويبسط الأمن في البلاد ، وذلك لأن مستلزمات الحكم كانت تستوجب هذا ، كما نقول اليوم بلغتنا العصرية .

فبشار بن برد يمدح المهدي فيرى أنه فتى قریش في مكارمه وتدينه :  
 ٨ فَتَى قُرَيْشٍ دِينًا وَمَكْرَمَةً      وَهَبَتْ وُدِّي لَهُ بِمَا وَهَبَا  
 أَعْطَى مِنَ الصَّمْتِ وَالْوَلَانِدِ وَالْ      عِبْدَانِ حَتَّى حَسِبْتَهُ لَعِبَا  
 يَزِينُ الْمَنْبِرَ الْأَشْمَ بَعَطَ      فَمَيْهَ وَأَقْوَالَهُ إِذَا خَطَبَا  
 وَتَشْرِقُ الْأَرْضُ مِنْ مَحَاسِنِهِ      كَأَنَّ نَوْرًا فِي الشَّمْسِ مَجْتَلِبَا  
 وهكذا ترى أن الشاعر يذكر الدين والتقى وقوة الخطابة وإشراق الجمال فكأنه يتغزل بمحاسنه وحديثه ، فيزين حبه للناس ويجمعهم حوله ، وبذلك يشترك مع العصر في استحسان هذه الصفات الجديدة عند الممدوح ، فهي صفات تتطلبها الحضارة العباسية كما قلنا ، ويقول في مكان آخر يمدح المهدي :  
 إِذَا غَدَا الْمَهْدِيُّ فِي جَنْدِهِ      أَوْ رَاحَ فِي آلِ الرِّسُولِ الْغَضَابُ  
 بَدَا لَكَ الْمَعْرُوفُ فِي وَجْهِهِ      كَالظُّلْمِ يَجْرِي فِي ثَنَائِيَا الْكَعَابِ<sup>(١)</sup>  
 لَا كَالْفَتَى الْمَهْدِيُّ فِي رَهْطِهِ      ذُو شَيْبَةٍ كَهْلٍ وَلَا ذُو شَبَابٍ

(١) الظلم بالفتح : بريق الأسنان .

فالمعروف يلتصق في وجه المهدي كما يلتصق الثغر في الكعاب ، وهو يفوق الشباب في جماله وبهائه . وهذا مديح جديد يصف لإشراق الفضل في وجه الممدوح ، يعطى وهو راض ويمنح وهو مبتسم ، فيضحك الخير في قسماته وتبدو بشائر الجود والندى على محياه . ويزيد بشار أن الخليفة يكره الفمخش ويضرب أعناق الرجال وهو حلیم مظفر كريم ، شهيم وقور ، ونعلاه تشمهما في الندى لشدة نظافتهما ، وأعضاؤه تثير الطيب لشدة طهارتها ، فكأنه الريحان في أزوف الندامى ، وهو ملك تسجد له الملوك يرعى حقوق العرب . ويلح الشاعر على هذه الصورة التي رسمها للممدوح يضحك للندى فيقول :

لَمَّا رَأَى بَدَتْ مَكَارِمُهُ      نوراً على وجهه وَمَا اكْتَسَابَا  
كَأَنَّمَا جِئْتُهُ أَبْشُرُهُ      ولم أَجِئْ رَاغِباً وَمُخْتَلِبَا

والكريم من يضحك حين يعنى ، فكأنك تعطيه الذي أنت سائله ، وتبشره بالربح كأنك لا تسلب منه ولا تكتسب من ماله . ويبالغ بشار في مديح الخليفة حتى ليرى عليه سماء النبوة ، ويقرر أن عنده حجيج القلوب تؤمه لثرى الخير والنور والبركة . والأمن على ذلك مستتب في جميع الربوع والأصقاع ، يسد الثغور بخيل الله ملجمة ، ويصلح الفاسد ويداوى الصدور ، فتخضع له العرب والجم لقوته وكرمه ، فهو يحيى البلاد بعد موتها ويخرج فيها النور بعد ظلمتها ، لذلك يدعو له بالبقاء وطول العمر ، لعل الله يجعل للبلاد الإسلامية على يديه النصر والفوز والعمران .

ولعل بشاراً من أوائل الشعراء الذين نقلوا مديح الملوك من ميدان الكرم والشجاعة إلى ميادين جديدة ، فيها حب الرعية والإخلاص للشعب والخير للبلاد حين تلفت العباسيون إلى هذه المعاني فاتخذها الشعراء ديدناً وألحوا على ذكرها . ومثله أبو نواس في ذلك إذ سمى الرشيد « أبا الأمان » ورأى أن سياسته خير سياسة ، فقد نزع التحاسد بين الناس وألف بين قلوبهم ، وجمع شتات آرائهم ، فقال :

هَارُونُ أَلْفَنَّا ائْتِلَافَ مَوْدَةٍ      مَاتَتْ لَهَا الْأَحْقَادُ وَالْأَضْغَانُ  
 مَلِكٌ تَصَوَّرَ فِي الْقُلُوبِ مِثَالُهُ      فَكَأَنَّمَا لَمْ يَخُلْ مِنْهُ مَكَانُ  
 أَلْفَتْ مَنَادِمَةَ الدِّمَاءِ سَيْوْفُهُ      فَلَقَلَّمَا تَحْتَازَهَا الْأَجْفَانُ

ومن لك بملك يجمع الشعب على مودة، ويقتل الأحقاد والأضغان، فتعجبه القلوب وتجعل له في كل حنية من حناياها مكاناً، وهو لشجاعته تنادم الدماء سيوفه فقلما تختبئ في أجفانها، وإنما هي مشهورة على العدو، وسلواة على الظالم الباغي. وقد بالغ أبو نواس كما بالغ بشار من قبل فمدح الأمين وجعله خير الناس جميعاً لم يستثن منهم أحداً فقال:

وَإِذَا الْمَطِيُّ بَنَّا بَلَدَغْنَ « مُحَمَّدًا »      فَظَهَرُوهُنَّ عَلَى الرَّجَالِ حَرَامُ  
 قَرَّبْنَنَا مِنْ خَيْرٍ مَنْ وَطِئَ الْحَصَى      فَلَهَا عَلَيْنَا حَرَمَةٌ وَذِمَامُ  
 مَلِكٌ إِذَا عَلِقَتْ يَدَاكَ بِحَبْلِهِ      لَا يَقْتَضِيكَ الْبُؤْسُ وَالْإِعْدَامُ

ولكننا نلمح في هذا المديح استجداء وحاجة وطلباً للمال يدعو إلى هذا القول والمبالغة فيه، حتى يجعل الأمين خير من يمشى على قدم مما خلق الله من إنس ومن جان، وهذه صورة أعجبت القدماء كذلك فجعلوها مثلاً يحتذى وقولاً يتردد في كتب النقد والبلاغة.

ومدح مسلم بن الوليد خليفة المسلمين هارون الرشيد فرأى فيه جامعاً للقلوب على المودة والإنحاء ودفن الأحقاد والأضغان، كما رأى بشار من قبل سواء بسواء فقال فيه:

إِذَا اخْتَلَفَتْ أَهْوَاءُ قَوْمٍ جَمَعَتْهُمْ      عَلَى الْعَفْوِ أَوْ حَدَّ الْحُسَامِ الْمَهْدِ

فهو يجمع الحلم إلى القوة، والكرم إلى البطش، وهو حين نظر إلى الأمين رأى فيه خليفة يجدد عهد أبيه في البأس والشدة:

خليفةُ الله قد ذلت بطاعتهِ صعر الخُدودِ برغمٍ من مراقبيها  
 أحيَتْ يده الندى والجود فانتشرا في الأرض طراً وجالا في نواحيها  
 كم من يدٍ لأمين الله لو شكرتُ لقصر النفس عن أدنى أدانيها  
 فالخليفة يذل العصاة وصعر الحدود ، ويحيي بيديه الندى والجود فيعم بهما  
 الأرض وتنتشر مكارمه في الدنيا ، وتقصر النفس عن شكر آلائه ونعمه ،  
 فراحتاه تهينان المال ، وبيته في علياء مكرمة يقصر النجم عن أدنى مراقبيها ،  
 وهو لو حسبت عطاياه وعدت فضائله لقل الحساب وفشل الذي يحصى ،  
 ذلك لأن الرجل أثبت دعائم الملك ، وأهلك الأعداء ، وقسم بينهم حظوظ المنايا ،  
 ودفن الثورات والفتن بعد أن ثارت نارها وشب أوارها . فصريع الغواني يمجّد  
 البطولة والشجاعة والحكمة في أسلوب الحكم ، ويمتدح يد الخليفة في إشاعة  
 الأمن ورخاء الشعب في زمن يهدد بالفوضى والشغب في أرجاء العالم الإسلامي .

وأبو العتاهية كزميله يمتدح الرشيد للأسباب عينها ، ويرى فيه سيفاً مصلتاً  
 على الرعوس النائرة ، وحامياً للإسلام وناصراً للدين :

إذا نكبَ الإسلامُ يوماً بنكبةٍ فهارون من بين البرية ناصرة  
 ولذلك يرى أن القدر ساقه إلى المسلمين فجعله خليفتهم :

أتته الخلافةُ مُنْقَادَةً إليه تجرُّ أذيالها

فلمْ تكْ تَصْلُحْ إلا له ولمْ يَكْ يَصْلُحْ إلا لها

فلا تصلح إلا له ، وقد سعت منقادة إليه تجر الذيل ، وقد شمسست عن غيره  
 وتأبت على سواه . وظاهر أن الشعراء أحسوا بالحاجة إلى خليفة قوى فامتدحوا  
 فيه هذه الصفات أو سعوا إلى نشدانها عنده ، أو حثوه إلى أن يكون في هذا  
 الموقع الرصين حيال الفتن الدائرية والحروب الخارجية ، والعدو يتربص بالمسلمين .  
 الدوائر ، ويتجمع على الحدود المتاخمة ينتظر ثغرة في الثغور ليهاجم منها ، فيحطم

الأسوار ويخذل الجيوش . ولذلك وقف أبو تمام أكثر مديحه على هذه المعاني ،  
 فرأى في المعتصم مفتاح النصر والظفر ، وسماه المعتصم المنتقم والمرتبب في الله  
 المرتقب ، وقال إنه لم يغز قوماً إلا تقدم الرعب جيشه ، ولم يرسل جمحفاً إلا  
 كتبت له العزة والكرامة ، فأبطل عمود الشرك واستحق شكر الدين :

خَلِيفَةَ اللَّهِ جَاذَى اللَّهُ سَعْيَكَ عَنْ جَرثومةِ الدِّينِ والإِسْلَامِ وَالْحَسَبِ  
 بَصُرْتَ بِالرَّاحَةِ الْكُبْرَى فَلَمْ تَرَهَا تُنَالُ إِلَّا عَلَى حِشْرِ مِنَ التَّعَبِ

وطبعي أن نرى في مديح الخلفاء صفاتهم الخاصة من كرم وندى وشجاعة  
 وبأس ، مقرونة بحفاظهم على بيضة الدين وحوزة الإسلام ، وما ينال ذلك إلا  
 بالتعب والسعي ، والجهد والقتال ، فهو مدح يقترن بالحماسة والحث على  
 الحروب ، وقمع الفتن والسير بالناس سيرة الرأفة والسكينة والوقار ، وديوان  
 أبي تمام يغص بالمديح في هذا الباب يشيد بالفتوح والانتصارات وأساليب  
 الحكم العادلة ، قد خص بها المعتصم والوائق والمأمون ، فكأنه مداح العصور  
 العربية كلها ، وشاعر الخلفاء العباسيين ، في حسن ديباجة وجمال صيغة  
 وأساليب ، سالت في الديوان كل مسيل .

والبحتري سار سيرة أستاذه فانبرى للمعتر بالله ووصفه بالتقوى والورع  
 ونصرة الإسلام ، فهو من عليا قریش تناصرت مآثره في فخرهم وله فيهم منصب  
 مكين ومكان رصين ، فقد لبس المسلمون في عهده من نعم المعتر برُداً تزيد على  
 السحائب في الرياض ، لأنه أخو حزم ساس الأمور ودفع النوائب واعتصم  
 بالعزم والهدى ، فعمت البرية مناقبه ، وسار في الناس عدله :

أَمَّا زِلْتُ حَتَّى أَذْءَنَ الشَّرْقُ عَنُوءَ ودانت على صغر أعالي المغارب  
 جُيُوشٌ مَلَأْنَ الْأَرْضَ حَتَّى تَرَكْنَهَا وما في أقاصيها مَقَرٌّ لِهَارِبِ  
 ولسنا نعجب بهذا المديح ، فالخليفة يبسط ظلال الأذن في مشارق العالم



الإسلامي مغاربه ، وهو يضطلع لهذا العبء السياسي على خير ما يرجو المسلمون ، لذلك جعل الشعراء مدحهم أوفى لسيرورة ذكره وبسط اسمه في العالمين ، فهو يقول في المهتدي :

إِمَامٌ إِذَا أَمْضَى الْأُمُورَ تَتَابَعَتْ      عَلَى سَنَنِ مِنْ قَصْدِهَا وَسَدَادِهَا  
تَشَوَّفُ أَهْلَ الْغَرْبِ فَارِمَ بِعِزِّهِ      إِلَى إِرَامٍ إِذَا مَا نَعَتْ وَعِمَادِهَا  
لَتَسْكُنَ ضَوْضَاءُ الْعَرِيشِ وَتَنْتَهَى      فَلَسْطُونَ عَنْ عِصْيَانِهَا وَعِنَادِهَا

وهكذا رسم للمهتدي حدود مملكته ووارف عدله فيها ، وذكر أياديه عليها ، فهي تنام مطمئنة حين يسهر الخليفة على رعايتها وحفاظها . والبحتري لا يقف عند هذا في مديحه لأعمال الخلفاء ، وإنما يتطرق إلى ذكر صفاتهم الخاصة ، فيشيد ببلاغتهم وفصاحتهم كما أشاد بشار وأبو نواس من قبل ، فقال في المعتمد على الله :

وَإِذَا تَكَلَّمَ فَاسْتَمِعْ مِنْ خُطْبَةٍ      تَجْلُو عَمَى الْمُتَحَيِّرِ الْمُرْتَادِ  
أَفْضَى إِلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ فَصَادَفُوا      أَدْنَى الْبَرِيَّةِ مِنْ تَقَى وَسَدَادِ

فالخليفة خطيب بارع وفصيح متكلم ، يجمع بين برديه ذلاقة اللسان وقوة البيان وطهارة النفس وسداد الفكر ، إلى عدالة يبسطها في الرعية وأمن يعمه في الأمصار ، فأخيا صفات المديح في الجاهلية والإسلام وأضاف إليها مديح العباسيين وما يستحسنونه من خلفائهم وقد اتسعت رقعة الملك وفاضت المشاكل وكثرت الحروب ، ويعترف البحتري بأنه ينظر إلى المثل العليا عند الأجداد يحياها الخليفة ويكمل بها سيرة الآباء ، فيقول في المتوكل على الله :

أَحْيَا الْخَلِيفَةُ «جَعْفَرُ» بِفَعَالِهِ      أَفْعَالِ آبَائِهِ وَجُدُودِ

ولا بد لنا من القول هنا إننا حين نستعرض صور المديح نلمح رسوم المعارك

والغزوات وقد احتدمت الحروب ، واهتزت الأرض ومالت بثقلها ، فإذا طلع وجه الخليفة انجلت السحب وانقشع الجوى ، وذكر المحاربون بطلعة أمير المؤمنين طلعة النبي في غزواته فهللوا وكبروا لإجلاله وتوقيراً ، والخليفة على ذلك متواضع خاشع لا يزهى ولا يتكبر :

وَمَشَيْتَ مِشْيَةَ خَاشِعٍ مُتَوَاضِعٍ      لِلَّهِ لَا يَزْهُو وَلَا يَتَكَبَّرُ  
فَلَوْ أَنَّ مُشْتَقًا تَكَلَّفَ فَوْقَ مَا      فِي وَسْعِهِ لَمْشَى إِلَيْكَ الْمُنْبَرُ

## ٣

وذلك يدعونا إلى التفكير بهذا المديح يرسله الشعراء العباسيون فيصفون عليه طابع الحماسة والدين والسياسة إلى المديح الخالص الذى يرسم صفات الخلفاء ومزاياهم ، فهم لا يستطيعون أن يفصلوا بينها فى ذلك العهد لأنها مما يرفع شأن الحكام ويعلى مقامهم فى أعين الشعوب ، فلم يقصدوا إلى السياسة قصداً أو إلى الدين عمداً ، ولكنهم جعلوها من حسنات الخليفة وأباده ، فأضافوا إلى المديح الأموى نظرة واسعة إلى أعمال الخلفاء لم تكن من قبل ، ساق إليها ظرف جديد ومحيط جديد ، يجب فيه على الحكام أن يلتفتوا إلى حال الشعوب ؛ يدفعون عنهم البؤس والنحس والفوضى والفتن ، ويقفون فيه على الأمن والرخاء والعدل والنصر ، وبدونه لا يقع الخليفة من نفس المسلمين موقفاً حسناً . والشعراء أحسوا بهذا فأشركوه بمدائحهم وأدخلوه فى معانيهم ، ليدخلوا فى أذهان الناس أن الخليفة على صفاته الخلقية الشخصية ، يعنى بالمسلمين فى كل ما يلم بأمرهم ، وذلك كما يفعل أرباب الصحافة الحزبية لعصرنا ، يعلنون الخير ويلمحون به ، ويجمعون للزعماء صفات العدل والنظر إلى أمور الرعية ، فتصدق الرعية ما يقال وتسير

وراء هؤلاء السادة القادة ، وذلك أدركه شعراء بني العباس منذ ألف عام ، فكسبوا للخلفاء نصر الجماهير وجمعوهم على حبهم ، بأساليب مختلفة من البيان يوطئون بها أكناف المديح فيستعملون الصور والمعاني التي تطرب الشعب وترقص خياله ، فيقع لهم ما يريدون من مديحهم سواء أكانوا صادقين أم دعاة متحيزين ، فالبيان كالسيف يبنى ويهدم ويضع ويرفع ، وكثيراً ما يصنع المال في كسب البيان ويكون المديح .

ونحن حين نقول ذلك إنما نمهد به لعهد جديد ، تقسمت فيه الممالك وكثر الملوك ، فأصبح الحكام يشترى المديح ويهبون من أجله ، وكان التنافس بين هؤلاء الملوك كتسابق الأحزاب السياسية اليوم ، لذلك كثر المديح في كل قطر من أقطار العالم الإسلامي ، وهب الشعراء يتنقلون من مملكة إلى مملكة وراء الممدوح ينالون أجر ما ينفقون من قصيد و يروجون من دعاوة ، فقد أحرق الأعداء بالممالك وأصبح لكل بلاط جيش ، ولكل جيش مهمة ، وللشاعر أن يحث الهمم وأن يشيد بنضال الملوك وصيرهم على القتال والجهاد .

وأبو الطيب المتنبي من خير من يصور المادحين ويمثلهم في هذا الميدان ، فقد انتقل من ملك إلى ملك ، وشهرته تسبقه في المديح ، فقام في كل بلاط مقام الصحيفة السياسية اليوم ، فامتدح سيف الدولة لحروبه وانتصاراته ضد الروم الغازين أو القبائل الثائرة ، ورأى فيه الملك المنقذ والقائد الحكيم والأمير السخي ، ورسم غزواته وسراياه تترى ، والدمستق هارب محجر ، والجيش الرومي موزع بين القتلى والأسرى ، وأموال العدو نهبى ، فصوره كالليث أو السيف أو الغيث ، وقال إنه يملك أنفوس الثقلين ويحصى أنفاس الأعداء ، فهو سيف الله لا سيف خلقه ، وهو أطعن من مس سيفاً ، وأضرب من أمسك بحسام ، يتصرف بالردى ويسوق المنايا :

فَأَنْتَ حَسَامُ الْمَلِكِ وَاللَّهُ ضَارِبٌ وَأَنْتَ لَوَاءُ الدِّينِ وَاللَّهُ عَاقِدُ



أحبك يا شمس الزمان وبدره وإن لآمتي فيك السها والفراقيد

فهو شمس الزمان وبدر الوجود ، ولواء الدين وحسام الملك ؛ وهو محض الحلم في محض القدرة ، يفوق الناس رأياً وحكمة كما يفوقهم حالاً ونفساً ومحتداً . إنه حامى الثغور وقائد الكتائب وبطل الأبطال . وسيف الدولة فوق ذلك كله مجير الشعراء ينيلهم من عطاياه وجوائزه ، حتى قال فيه أحد المؤرخين إنه كان يهدم قرية ليحجز شاعراً ، ولذلك قصده المتنبي وصارحه بحاجته إلى المال ، وطلب إليه ضيعة أو ولاية وإقطاعاً كما طلب إلى غيره من الملوك ، فقال يخاطب سيف الدولة :

أجزني إذا أنشدت شعراً فإنما      بشعري أتاك القائلون مردداً  
تركنت السرى خلق لمن قل ماله      وأنعلت أفراسي بنعمائك عسجداً  
إذا سأل الإنسان أيامه الغنى      وكنت على بعد جعلتك موعداً

وقد اعترف الرجل بأنه طلب ونال فخلف الفقر وراءه وأنعل أفراسه عسجداً بفضله ، وبلغ إلى الغنى ، فلم يخف سعيه وراء المال والمجد ، ومديحه ديوان يعدد أمجاد سيف الدولة ومفاخره في معاركه وغزواته ، فيخفف الانكسار ويبسط الانتصار ، وكأنه صحيفة شعرية لتاريخ هذا الرجل ، أو سفر ألفه في مدحه وسيرورة ذكره كما ألف القاضي ابن شداد في صلاح الدين ، أو ابن قاضي شبة في نور الدين ، أو كما يصنع الغربيون اليوم في نشر محامد المترجمين ، لم يغادر كبيرة ولا صغيرة من حياته إلا صنع منها موضعاً للمديح ، حتى جعله أعظم العرب قاطبة ، بل إن العظماء يتمنون في عصورهم كلها شاعراً كالمتنبي يرفع ذكرهم ويشيد بمآثرهم ، ولكن أنى للعصور أن تلد لكل جيل مداحاً كأبي الطيب ؟ وهو مع ذلك يأسف أنه لم يستوعب كل مزايا سيف الدولة ومناقبه ، فيقول :

لَيْتَ المَدَائِحَ تَسْتَوِي مَنَاقِبَهُ      فَمَا كَلَيْبٌ وَأَهْلُ الْأَعْصِرِ الْأَوَّلِ  
خُذْ مَا تَرَاهُ وَدَعْ شَيْئاً سَمِعْتَ بِهِ      فِي طَلْعَةِ الشَّمْسِ مَا يُغْنِيكَ عَنْ زُحُلِ  
إِنَّ الِهْمَامَ الَّذِي فَعَرُّ الْأَنَامِ بِهِ      خَيْرُ السُّيُوفِ بِكَفَى خَيْرَةِ الدُّوَلِ  
تُمْسِي الْأَمَانِي صَرْعَى دُونَ مَبْلَغِهِ      فَمَا يَقُولُ لِشَيْءٍ : لَيْتَ ذَلِكَ لِي

ذلك لأن التواريخ العربية تضرب المثل في العز ، فتقول : « أعز من كليب » ولكن المتنبي لم يرض لمليكه هذا بل رفعه فوقه ؛ وجعله كالشمس في نورها وإشراقها ، وأين نور الشمس إذا قورن بضوء زحل ذلك الكوكب البعيد ؟ ثم وضع سيف الدولة في جنان النعيم تتسابق الأمانى صرعى في سبيل رضاه فما يجد ما يتمنى ولا يأسى لفقد شيء لأنه فوق الرغبة والأمنية ، ومثله لا يسعى إلى شيء ، وإنما تسعى إليه الدنيا ومناقبها . والمتنبي هنا بلغ مرتبة في المديح لا ينافسه فيها شاعر ، إذ ركب متن الخيال فاصطاد أبعد الصور وامتطى أجمل التعابير ، يدفعه إلى المديح حب مليكه وإعجابه بعروبته وشجاعته ، ووقوفه للأعداء وقفة الأسد المصور والسور المنيع . وشاعر القرن الرابع كالنابغة يفضل مليكه على الملوك جميعاً ، فهو شمس وهم الكواكب ، وهو بحر والملوك جداول :

أَرَى كُلَّ ذِي مَلِكٍ إِلَيْكَ مَصِيرُهُ      كَأَنَّكَ بَحْرٌ وَالْمُلُوكُ جَدَاوِلُ  
إِذَا مَطَرَتْ مِنْهُمْ وَمِنْكَ سَحَابٌ      فَوَابِلُهُمْ طَلٌّ وَطَلُّكَ وَابِلُ

فهو المطر المنهمر في سخائه وجوده وكرمه وهم كالطلل الشحيح ، وأنه الفتي المغوار والمليك الخلاجل تطيعه الأرواح وتلتف حوله القبائل ، وتقبل بساطه الملوك ؛ والأعداء في الدنيا عبيده والأموال كلها غنائمه ، وقد ظلمه من سماه سيفاً فما كل سيف قاطع ، ومكاريه كالسيوف تقطع الشدائد جميعاً . ويتجاوز المتنبي الجود إلى الشجاعة فيرسم سيف الدولة في صورة بارعة لا نرى فوقها في مديح

القواد والشجعان الأبطال يقول :

تَمُرُّ بِكَ الْأَبْطَالُ كَلَمَى هَزِيمَةٍ      وَوَجْهُكَ وَضَاحٌ وَثَغْرُكَ بِاسْمُ  
تَجَاوَزْتَ مِقْدَارَ الشَّجَاعَةِ وَالنُّهَى      إِلَى قَوْلِ قَوْمٍ: أَنْتَ بِالْغَيْبِ عَالِمُ

وهذه الصورة يخطبها إسكندر المقدوني ونابليون وغيرهما من قواد الغرب فلا يقعون على مثلها ، وتراها تهادى فى خطب ودّ سيف الدولة لتجعله فى قادة الدنيا وأبطال العالم ، وتهبه العلم بالغيب والمعرفة بالأقدار ، فهو يقف وسط المعارك الصاخبة ضاحكاً . لأنه يملك الزمان بكفيه ، ويتمحكم فى الحروب ببأسه ، وينتهى فى مدحه إلى غاية بعيدة المدى فيقول فيه :

القَائِمُ الْمَلِكُ الْهَادِي الَّذِي شَهِدْتُ      قِيَامَهُ وَهَسْدَاهُ الْعَرَبُ وَالْعَجَمُ  
لَا تَطْلُبُنَّ كَرِيمًا بَعْدَ رُؤْيَيْتِهِ      إِنَّ الْكِرَامَ بِأَسْخَاهُمْ يَدًّا خُتِمُوا

وهكذا لم يترك واسطة لمديحه إلا بذلها ، فختم على غيره وسدّ الباب على الأتقياء الكرام وجعله خاتم الممدوحين ، ولكن النقاد على ذلك يرون أن هذا المديح متكسب يحته المال وتدفعه العطايا ، يجامل باللفظ الضخم والعبارة المثينة ، ويصدر عن اللسان لا الجنان . وخير منه فى نظرهم مديح أبي فراس الحمداني ، فقد كان من قريب إلى قريب وحبيب إلى حبيب ، يندفع عن صداقة وإعجاب خالص لا يعكره طلب ولا تفسده عطية ، إذ يقول فى سيف الدولة :

فَلَيْتَكَ تَحُلُوَ وَالْحَيَاةُ مَرِيرَةٌ      وَلَيْتَكَ تَرْضَى وَالْأَنَامُ غَضَابُ  
وَلَيْتَ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ عَامِرٌ      وَبَيْنِي وَبَيْنَ الْعَالَمِينَ خَرَابُ  
إِذَا صَبَحَ مِنْكَ الْوَدُّ فَالْكَلَّ هَيِّنٌ      وَكُلُّ الَّذِي فَوْقَ التُّرَابِ تُرَابُ

وهذا هو المديح العف الذى يطلب الود ويسعى إليه ويغليه عنده ، وكلّ

ما عداه في نظره تراب ، وهو أحسن المديح وأجل الحب ؛ لأنه يشيد بالأيادي ويعترف بها في تواضع وصدق :

فكم لك عندي من أيادٍ وأنعم رفعت بها قدرى وأكثرت حسدى  
فسيف الدولة قد رفع للأسرة مناراً ، وبني لها عزاً قوى الدعائم ، وشيد  
مجداً مشتهد المرائر ، لذلك وهبه الشاعر نفسه وهى عزيزة عليه :

شريتك من دهرى بذي الناس كلهم فلا أنا مبخوس ولا الدهر باخس  
وملكك النفس النفيسة طائعا وتوهب للمولى النفوس النفائس

وفي هذا القول اعتزاز بالملك ، ومديح صاف لشخصه ، وإكبار لبطولته  
وقدره ، فكم رسم في قصيده من صور القتال الذى تخاضه سيف الدولة حتى  
اشتكت الخيل من طول السير والنضال ، وعرف الروم أن ليس يعصمهم سهل  
ولا جبل بجوار هذا البطل الذى يزور الثغور في كل ساعة لا يثنيه خوف ولا  
يحجبه رعب .

ومدح السرى الرفاء سيف الدولة كذلك فرأى فيه ليثاً يصول ، له في كل أنمة  
سحاب وفي كل جارحة شهاب ، خضعت له آفاق البلاد ، وذلت له رقاب الملوك  
واعتز به الإسلام ، فهو غمام تخشى صواعقه ، وهو كالدهر لا تكبو حوادثه ،  
والجد ينتسب إليه لما قام به من غزو الروم والإحسان إلى الناس ، فهو في السلم  
أمير يعطى وفي الحرب قائد يستلب النصر والظفر :

فيوم الحرب تطربك المذاكى وفيوم السلم يطربك النشيد

وأنت الدهر إنعاماً وبؤساً وما للدهر نعلمه حسود

وقد أطال الشاعر في مديحه ، فخصه بقصائد كثيرة عامرة تجعله حيناً كالبدور  
في حسه وإنعام في جوده ، يحن إلى ورد المنية ، وتجرى سعوده في البرية ،

يشغل الناس من أصدقائه وأعدائه ، أولئك لا يفرغون من ذكره بالخير وهؤلاء لا يفرغون من ذكره بالخوف . وابن نباتة السعدي امتدح سيف الدولة كذلك فرآه كريماً يبذل مهجته في سبيل غيره ، ويعلم الدهر فضيلة الكرم والخلق الجميل . وكثير من الشعراء التفوا حول هذا الأمير يتنافسون في مديحه واختراع الصور الجلية في وصفه ، فجعله الأواء الدمشقي يلبس الأيام ثوب شبيبة بعد أن شابته ، ووضع المنايا تحت ظل سيوفه ، ورسمه بأنه كعبة الآمال وسيد الشجعان ، يلبس الدروع كالغلائل ، ويركب الموت كما يركب الخيل ، ويلخص القول فيه :

أماناً لمرتاع وروع لآمن وكهف لمطلوب وحرب لغالب

#### ٤

وظل هذا المديح المتكسب يتقلب على العصور الإسلامية منذ العصر العباسي ، فيزداد عكوفاً على الصور التقليدية ، ويردد ما قيل من قبل ، ويعيد على المسامع ما قاله هؤلاء الفحول لأنهم بلغوا ذروة المديح ، ولا بد من انحدار بعد هذا الغلو الشاهق ، فأصبح الشعراء في محيط ضيق من المعاني وعدد محدود من الصور ومعجم مرسوم من الألفاظ والتراكيب ، كأن الخيال قد بلغ النهاية ، فليس للشعراء أن يضيفوا في مديحهم للملوك إلا ما يقع في الندرة بعد الندرة من فكرة طارئة وحادثة طارئة ، فالدول تخوض المعارك والأعداء في ازدياد ، والغزوات كانت من الروم فأصبحت تفد من أوربة ، تحمل الدمار والنار إلى قلب البلاد الإسلامية ، فهض المداحون للمعاني الباسلة والصفات الفاضلة يلصقونها بملوكهم ، فهم في جهاد وقتال ، والملوك قواد الحيوش ووزراء الدفاع ، وهم قطب الرحى في المعارك ؛ عليهم يتوقف النصر ومن أيديهم تسيل الأموال . واستوى في هذه الصور شعراء المشرق والمغرب فأولئك وهؤلاء كانوا يرون الأعداء



تهجم على هذه المملكة الإسلامية الشاسعة من التبت إلى شطآن الأطلنقى  
يريدون بها شراً وخزياً ، ويريد لها الشعراء نصراً وفخراً .

كذلك وقف ابن هاني الأندلسي يمدح المعز ، فيرى فيه الشجاعة  
والكرم ، فيجعل الملائكة منزلة لنصره ، يطيعه الإصباح والإمساء ، وعليه من  
سما النبي دلالة ، وعليه من نور الإله بهاء ، تفر منه الأعداء وتسقط أمامه  
الهامات ، وهو معز الدين والجود وهادي الرشاد ، وهو ضياء الظلام إذا ادلممت  
الدنيا :

فَأَنْتَ سَيَّرْتَ مَا فِي الْجُودِ مِنْ مَثَلٍ      بَاقٍ وَمِنْ أَثَرٍ فِي النَّاسِ مَحْمُودٍ  
لَوْ نَحَلَّدَ الدَّهْرُ ذَا عِزٍّ لِعِزَّتِهِ      كُنْتَ الْأَحَقُّ بِتَعْمِيرِ وَتَخْلِيدِ

وكذلك استعمل ابن هاني صور القدماء فجعله مثلاً سائراً للجود ،  
شجاعاً في الأسود ، وبحراً طامى العطاء ، وهو فوق الملوك ، يلهون ويجد ، وهو  
جوهر وهم عرض ، وهو غيث لا ينقطع :

النُّورُ أَنْتَ وَكُلُّ نُورٍ ظِلْمَةٌ      وَالْفَوْقُ أَنْتَ وَكُلُّ قَدَرٍ دُونُ

وبالغ ابن هاني حتى عدا الحدود فقال في المعز الفاطمي :

مَا شِئْتَ لَا مَا شَاءَتِ الْأَقْدَارُ      فَاحْكُمِ فَأَنْتَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ  
وَكَاثِمًا أَنْتَ النَّبِيُّ « مُحَمَّدٌ »      وَكَأَنَّمَا أَنْصَارُكَ الْأَنْصَارُ  
أَنْتَ الَّذِي كَانَتْ تَبَشِّرُنَا بِهِ      فِي كَتَبِهَا الْأَحْبَارُ وَالْأَنْخَبَارُ

وجعله كالنبي محمد ، مرسلًا ونبيًا تدعّمه الأنصار التي ساندت النبي  
وتخبر عنه كتب الأحبار والأنخبار ، بل جعله فوق الأقدار يتحكم بها كأنه

واحد القهار ؛ وهذا منتهى ما يبلغ إليه المديح ، فالخليفة ظل الله على الأرض  
 فيما يقولون ، وهو شجاع وكريم ، ولكنه لن يرقى رقى الأنبياء ، ولن يبلغ مقدرة  
 الإله ، وإنما هو الشعر المتكسب يخدع الناس ويصور لهم البشر أنبياء وآلهة ؛  
 وما ذلك إلا لأنه ضاق ذرعاً بالمعاني المطروقة والألفاظ المعروفة فأراد أن يخرج  
 عن الحدود المرسومة والسنن المعلومة ، فسقط في التهويل والكذب والمبالغة ، فقال  
 الصابى يمدح عضد الدولة :

صلّ يا ذا العلا لربك وانحر      كل ضدّ وشائى لك أبتَرُ  
 أنت أعلى من أن تكون أضحى      لك قروماً من الجمال تعفّرُ  
 بل قروماً من الملوك ذوى السو      دد تيجانها أمامك تُنشرُ  
 كلما خرّ ساجداً لك رأس      منهم قال سيفك : الله أكبرُ  
 وجعله في مقام الإله يسجد له الناس ، صاحب طغيان وجبروت يفوق  
 البشر ويغلب الأقدار . وليس ذلك كثيراً إذا قيس بالزعرانى حين قال في  
 ممدوحه :

أنت الذى دنتُ بالسجود له      حتى لقد قيل : ربّه صنمُ  
 ولا تسل عن غلو المجوس والفرس الصابئة في مديحها للملوك ، وتفضيلها  
 للفرس على العرب ، وذلك للضعف السياسى الذى أصاب الأمة العربية ، وقسمها  
 شيعاً وأحزاباً ، فضاعت الموازين واختلت المقاييس ، وركب المديح كذبٌ  
 ليس فوقه كذب ، وكان ذلك مؤذناً بنخامة هذا الفن ومصرعه على أيدي هؤلاء  
 الغلاة .

أجل ، سقط المديح فأصبح الشعراء يلحون في طلب المال ويجددون طلباتهم في صراحة تبلغ القحمة ، يبيعون شعرهم ونفوسهم وينزلون إلى درك الطلب والمسألة . فإن كان المتنبي طلب ضيعة أو ولاية فالشاعر عمارة اليمنى سأل شمس الدين تورانشاه ما لم يسأله أحد مثله :

فَأَمْنُنْ عَلَى بِنَصْفِ الْأَلْفِ رَاتِبَةً      فَقَدَرُ وَدَّكَ لَا يَخْوِيهِ مِقْدَارُ  
مقسومة في شهور العام تحمل لي      أقساطها كل شهر وهي إدرارُ  
فهو يطلب المبلغ ويرى قسمته على شهور العام في أقساط تحمل إليه  
ليعيش ويستعش ، وهذا في نظرنا نهاية المطاف بالشاعر الحر ، ونزول إلى درك  
السائلين الشحاذين ؛ وبعد عن العفة والإخلاص في المدح ، وكشف عن أستار  
المادحين وسقوط بمرتبة المديح في ظاهر اللفظ وصريح الطلب ، كما فعل سبط  
ابن التعاويذي حين عاتب الملك العادل يوسف بن أيوب في عطائه وطلب إليه أن  
ينظمه على صلوات موفوتة معينة من العام :

وكان يا « يوسف » السباح بنا      إلى عطايك شوق « يعقوب »  
حاشاك أن ترسل الصلوات على      غير نظام وغير ترتيب  
فتلاعب باللفظ وجعل شوقه إلى مليكه يوسف شوق يعقوب إلى ابنه ، ثم  
عاتبه بعد ذلك على النظام والترتيب في إرسالها ورأى أن لا يسوى بينه وبين غيره  
فيها :

سَوِّيتَ بِي فِي الْعَطَاءِ مَنْ لَا يَجَا      رَيْنِي فِي مَذْهَبِي وَأَسْلُوبِي



وغيرُ بدع فالتسحبُ ما برحت يقلُّ منها حظ. الأهاصيب  
شعريَّ ربُّ الأشعار قاطبةً وهل يُسوى ربُّ بمربوب ؟

وهو في هذا يضرب على حوافر المتنبي مع بعد الزمن وفارق العبقريّة ،  
فيقلّده حين طلب أبو الطيب إلى سيف الدولة أن يجزيه لكل شعريّ سمعه من  
الشعراء فهم صدى لشعره ينتحلون منه ويسرقون ويتقدمون به في المديح ،  
يرددون ما قاله فكأنه يريد أن يختص نفسه بالعطايا والصلوات وأن يحرم منها غيره ،  
وهو وحده الشاعر وغيره نظام لا يجيد أمراً . وقد صدق المتنبي فأصبح الشعراء  
يقلّدونه في مديحه وهم أصداء لشعره من غير شك ، يسألون كما سأل ويلحون  
كما ألح ويبالغون في ذلك حتى أسفوا في المسألة والإلحاح والأناثية .

وأصبح المليك في نظر الشعراء مقسم الأرزاق والآجال بين الوري ، فيقول  
سبط بن التعاويذي في مليكه :

قَسَمْتُ يَمِينُكَ فِي الْوَرَى الْأَرْزَاقَ وَالْآجَالَ بَيْنَ مَنِي وَبَيْنَ مَنُونٍ  
وَأَرَيْتُنَا بِجَمِيلِ صُنْعِكَ مَا رَوَى الرَّأْوُونَ عَنْ أُمَمٍ نَخَلَتْ وَقُرُونٍ

فجعله في مقام الإله — عز وجل — يمنح الأرزاق والآجال ، تتعلق به  
النفس ويقف اللسان على مدحه وإجلاله دون الله ، كأنّ المديح عبادة وصلاة  
يرتلها الشعراء أمام هؤلاء الآلهة الصغار ، وبذلك يعودون بالشعر العربي إلى وثنية  
دونها وثنية اليونان ، فيحكون عن ملوكهم أساطير لا تشبهها أساطير القرون الأولى ،  
ويسقطون بالمديح سقوطاً يظل أجيالاً وقروناً يتردى في حفرة الجهل والظلمات ...

ولما كان القرن التاسع عشر للميلاد نهض المداحون لملوكهم ؛ فراحوا يقلّدون  
الشعر القديم ، ويتخذون من ألفاظه ومعانيه ميداناً يرتعون فيه ، فقال محمود  
الساعاتي في « ولي النعم الخديوي الأعظم » إنه أنار الدنيا ودان لملكه كل مسود ،  
فعمّ نور العدل مصر ، وأشرقت بسماحته وجوده ، وتولى الجور عنها ، فبشرى

لأهل البر والبحر والعلی ، إنه المليك الكريم الشجاع ، يبعث الرعب في الأعداء ،  
ويكسب الغنى جماعة الأصدقاء ، وجيشه جرار وعسكره يملأ الأرض ؛ فلما  
سافر الخديو إلى الحج قال فيه :

مَلِكٌ تَتَوَجَّجُ بِالْوَقَارِ عَلَيْهِ مِنْ حُلَلِ الْمَهَابَةِ وَالْكَمَالِ رِثَاءُ  
يَسْتَعَى إِلَى الْحَرَمِ الشَّرِيفِ مُسَرِّبَالاً بِمُخْشَوَعِهِ وَأَمْسَامِهِ الْأَضْوَاءُ

وهو على هذا الشعر الركيك يخرج علينا بصور ممسوخة في تشطير ضمنه  
التاريخ في الشعر على عادة العصر ، فسقط وأكثر من السقوط حتى عدنا  
المديح هزلاً لا يسمو إلى ابتكار ولا يجرى مع الفحول في مضمار .

ومحمود سامي البارودي أعاد للمديح أسلوبه المتين ولفظه القديم ، وأضاف  
إليه صوراً استقاها من العصر ، فاستعمل البرق في تصوير بشر الخديوي ،  
وجعله كالطبيب في شفاء الأمة ثم قال :

لَا زِلْتَ فِي فَلَكَ الْمَعَانِي كَوَكْباً تُهْدِي الضِّيَاءَ لِأَعْيُنٍ وَقُلُوبٍ

وقلّد القدماء كذلك في امتداح حسنات المليك وخدماته للشعب ، وخيراته  
في الوطن ، فقال إن مصر أصبحت في عهده شرعة للوراد ، يرعاها برأفة والد ،  
ويحميها بصولة أسد . وقدّس المشورة في الحكم وهي حلية كل راع مرشد ، أوصى  
بها الدين وتقيد بها الغربيون . ورأى فيه نوراً وهداية وسعداً وغناً للأمة والوطن .  
وهكذا قلّد القدماء في رفعة المليك واتخذ التعابير العصرية سبيلاً إلى ذلك ،  
وحذف كلمة العرب والعجم واستبدل بها الشرق والغرب ، وقال بأن الخديو بعث  
السلم في الناس ، وأزاح ضباب الحرب ، حتى دعا له بالخلود إلى قيام الساعة :

وَدُمَّ عَلَى الدَّهْرِ فِي مُذْكَ تَعِيشُ بِهِ مُرَقَّةَ النَّفْسِ حَتَّى نَفْخَةَ الصُّورِ  
وسار حافظ إبراهيم على خطة البارودي في مديح الخديو عباس الثاني

في مطلع القرن العشرين ، يمجّد فيه عزيز مصر ، ويحمد فيه أيّاديه على الورى  
فهو حلّيم عادل ، وهو ابن أكرم من ساروا ومن ملكوا ، وهو الأب المفتدى  
أجرى الخير في النيل فاهتزت جوانبه ، وفاض بالنعمة كل سهل وواد ، وهو  
بناء الرجال ، أنخلصت له الأمة في سر وإعلان ، ولولاه ما طلب الشعب  
حقاً ولا شعر بحب الأوطان :

حَسْبُ الْأَرِيكَة أَنْ اللَّهُ شَرَّفَهَا فَأَصْبَحَتْ بِكَ تَسْمُو فَوْقَ كَيَوَان<sup>(١)</sup>

وحافظ إبراهيم يدعو لرفعة الشرق ، ونهضة الصقر بعد طول خمول على يدي  
مليكه وهو محبوب ومحروس :

فَعَرَّشُكَ مَحْرُوسٌ وَرَبُّكَ حَارِسٌ وَأَنْتَ عَلَى مَلِكِ الْقُلُوبِ أَمِيرٌ  
ويعتمد حافظ في مديحه على خطوة القدماء في نصرة المليك للدين وعمله  
لرفعة الإسلام وحربه للشرك ، ولذلك يمدح عبد الحميد فيرى أنه تجلّى  
في يلديز على عرش الجلال وتاجه يهش بالنعمة والمجد ، والمسلمون في مشارق  
الأرض ومغاربها يدعون له ويلحون في الشكر إلى الله يلتمسون له النصر ،  
ويشنون على أيّاديه في كل مكان ، فهو يسكن القلوب جميعاً ويرتعى حباتها ويحلّ  
في الوجدان . ويشيد حافظ كذلك كما أشاد البارودي بالشورى ، ويشكر  
للملك أنه أقام شريعة الديان ونصر الإسلام بمدافعه وقنابله وبنادقه :

فَلَهُ عَلَى الدُّنْيَا الْجَدِيدَةِ نِعْمَةٌ يَشْدُو بِذِكْرِ صَنِيعِهَا الْفَتَيَان<sup>(٢)</sup>

فالشاعر يمدح الملوك كما مدح القدماء ملوكهم ، لأنهم أقاموا عمود الدين ،  
ودافعوا عن حياض الملك ، ورفعوا لواء الإسلام ، وعملوا على نهضة الشعوب  
الإسلامية ، وكان يعجب بالخلفاء الراشدين وعمر بن الخطاب خاصة ويرجو

(١) كيوان : اسم للكوكب زحل بالفارسية .

(٢) الدنيا الجديدة : أمريكا - الفتیان : هما الليل والنهار .

للحكام أن يقلّدوهم ، ولذلك رسم سيرة عمر في شعره لعل الناس يعرفونها  
ويأخذون بها ، ولعلمهم يستعيدون ماضى الإسلام حين كانت شوكته في  
كل مكان ورفعته في كل جانب ولواؤه في كل صقع .

وأحمد شوقي حمل اللواء في هذا العصر ، ومدح الملوك مديحاً لا يخلو  
من جدة وطرافة وجمال وجلال ، فجعل ديوانه سجلاً لتاريخ الإسلام والأمة  
المصرية ، وما كان للمسلمين والفراعنة من عز ومجد وتاريخ خالده . وقد  
استوى في مديحه على صيغ وتعابير تنهض مع العصر وتحلق مع الزمان ،  
فقال في عبد الحميد إنه نهض بعرش ينهض الدهر دونه خشوعاً وتخشاه الليالي  
وترهبه الأيام ! وإنه عين جارية تفيض على مرّ الزمان وتعذب على الدهر ،  
فتحي موات الأرض ودارس الرسم فكأنه عيسى ، عليه السلام .

وسجل شوقي أعمال الخليفة للمسلمين ؛ فقد ناموا في غبطة قريري العين ، لأنه  
ساق إلى الأعداء جيشاً أفشى في البلاد من الضحى وأبعد من شمس النهار ،  
يرمى به البحر من كل جانب ويرسله في كل شعب فينتصرو ويظفرو . وهو بذلك  
يذكرنا بشاعر الحمدانيين المتنبي إذ يصور جيش سيف الدولة ، ويعيد إلى  
أذهاننا ذكرى الحروب بين العرب والروم في رسم هذه المعارك والغزوات . وشوقي  
يقف بباب الملوك كما وقف المتنبي من قبل ، ويمتدح هؤلاء لعكوفهم على الدين  
ونصرتهم للإسلام ، ولولا هم لضاع الملك وتشتت أواصر الخلافة ، فهو كشعرائنا  
القدماء في هذا سواء بسواء .

ولا يقف شاعرنا عند المسلمين ، وإنما يعود إلى ماضى مصر ، فيمتدح  
ملوكها القدماء ويشيد بأمجادهم وتاريخهم وأيادهم على أرض النيل . وينتقل بعد  
ذلك إلى ملوك مصر المعاصرين من سلالة محمد علي فيخلص لهم الود . ويمحضهم  
المديح .

وكان أحمد شوقي في مديحه صورة للمديح في أدبنا العربي منذ النابغة حتى  
اليوم في أغراضه وصوره ؛ لا يختلف عنه إلا في أساليبه الجديدة التي أخذت من

روح العصر وتعابير المحدثين ، فارتفع بالمديح التقليدى إلى مرتبة تجعله بحق شبيهاً بأبى تمام فى العباسيين ، والمتنبى فى الحمدانيين .

\* \* \*

ونلاحظ أن المدنية الحديثة وتيارات الأدب لم تبدل من نظرة كثير من شعرائنا فى المديح ، بالوطن والمهجر ، كأنّ الشاعر ما يزال فى حاجة إلى من يدعمه ويسانده ، لا يخلق إلاّ إذا كساه هؤلاء ريشاً يطير به ليعيش وفور الكرامة مكفى المثونة ، يحقق طموحه المجنح على أيدي الملوك ، فيستوى بذكائه وثقافته مع غيره من الميسورين فى صعيد واحد من عيش رافه ومنزلة مستقرة .

## الفصل الثاني

### مدح الأمراء والوزراء والوجهاء

١

كانت صلة الشعراء بالوجهاء والأشراف والأمراء والوزراء والقواد أشد من صلتهم بالملوك والخلفاء ؛ ولم يكن من الميسور دائماً أن يحظوا جميعاً ببقاء الملوك والدخول على الخلفاء ، لذلك تعلّقوا بأسباب من دونهم وسيلة إلى الجاه حيناً وإلى المال أحياناً . ونظر الشعراءُ إلى هؤلاء غالباً ، نظرة الغريق إلى المنقذ ، والفقير إلى الغني ، والمحتاج إلى المتفضل ، فامتدحوهم كما مدحوا الملوك ، ولعلّ مردّ ذلك إلى أن المديح ضاق بهم عن اختراع لون مختلف لكل طبقة من طبقات الممدوحين ، أو لأنهم كانوا ينظرون إليهم نظرهم إلى الملوك من غير تفريق أو اختلاف . وقد عرضنا في الصفحات السابقة أغراض الشعراء ومعاييرهم حين يمتدحون الملوك ؛ وعرفنا كيف كانوا يصفون هؤلاء الخلفاء ، وسنبين هنا في إيجاز ما كانوا يقولون في هؤلاء السادة وجهاء الأمة ، ونبلأ العشيرة وقادة الحيوش .

مدح النابغة النعمان بن الحلاح قائد الحارث بن أبي شمر الغساني ، ومدح غيره في الحجاز ، وكان يشيد بعلو المنزلة والسخاء والشجاعة والتدين والعقل والحجى ، وقد كان أول أمره يبعث الشكر ويرسل الثناء لما نال من كرم وندى ، ثم تكسب بذلك فأصبح هذا اللون حرفة له . وهو يصرّح في شعره بأنه لم يمدح عمره سوقة ، وإنما يمدح العظماء والملوك .

ومدّح زهيرُ بن أبي سلمى كل من قام بإصلاح ذات البين أو عمل عملاً كريماً ، كما فعل مع هرم بن سنان والحارث بن عوف حين أصلحا بين عبس



وذبيان ودفعاً الديات من مالهما الخاص حقناً للدماء . وكان مدحه لهما ولغيرهما يقتصر على ذكر الصفات البدوية من شجاعة ورأى كريم ، وأصل عريق وتقوى خالصة . وكان زهير مخلصاً في هذا المديح يسعى وراء المعروف والفضل فيشيد بهما ، ولكنه كان يفتح المديح بالغزل التقليدي ، ثم ينتقل إلى صفات الممدوح فيقول في هرم :

أَغْرُ أَبْيَضُ فَيَّاضٌ يَفْكُكُ عَنْ      أَيْدِي الْعُنَاةِ وَعَنْ أَعْنَاقِهَا الرِّبَقَا (١)  
مَنْ يَلْقَى يَوْمًا عَلَى عِلَاتِهِ هَرَمًا      يَلْقَى السَّمَاحَةَ مِنْهُ وَالنَّدَى خُلُقًا  
لَوْ نَالَ حَيٍّ مِنَ الدُّنْيَا بِمَكْرَمَةٍ      أَفُقَ السَّمَاءِ لَنَالَتْ كَفُّهُ الْأُفُقَا

فهو بين الكرم ، يشرق وجهه بالندى ، كثير العطاء ، خلقت معه السماحة والجلود ، يحتل بمكارمه مكاناً سامياً حتى لتلامس كفه الأفق في رفعتة وهو منزلته وعظم مقامه بين الناس . وهذه صفات العرب ومثلها العليا . ويقول زهير في هرم كذلك إنه حامى الدمار ، سحب على المحتاج ، يحنو عليه حنو المرضعات على الفطيم ، ويسعى إلى جميل الأحداث وطيب الذكر . وهو مع الحارث بن عوف يتداركان الأحلاف في الضيق ، فيحوم حولهما أصحاب الحاجات يسألونهما ما يريدون ويعطون ما يطلبون ، ومجالسهما تشفى بأحلامها وآرائها كل جاهل متعنت :

فَمَا كَانَ مِنْ خَيْرٍ أَتَوْهُ فَإِنَّمَا      تَوَارَثَهُ آبَاءُ آبَائِهِمْ قَبْلُ

والى هذا الخير والكرم يجتمع في الممدوحين عند زهير فضل الشجاعة والبطولة ، يكررها كلما وقف عند مديح فيقول في حصن بن حذيفة :

وَأَبْيَضُ فَيَّاضٌ يَدَاهُ غَمَامَةٌ      عَلَى مَعْتَفِيهِ مَا تُغَبُّ نَوَافِلُهُ (٢)

(١) أغر : في وجهه غرة ، أى أنه بين الكرم - فياض : كثير العطاء - العناة : الأسرى - الربق : ج ربة وهو حبل طويل فيه مواضع تجعل فيها روس الحملان ، وهى الأغلال هنا .  
(٢) المعتفون : الذين يطلبون ما عنده - نوافله : عطاؤه كل يوم ، أى أنها دائمة .

ويعيد هنا قوله في هرم وعبارته نفسها ، فيشهد أن ممدوحه نقي من العيب  
صاف من الدنس والعيوب ، ويداه تسحان كالغمامة وتمطران بالعطاء ،  
وهو كريم بماله يسخو باشاً متهللاً إذا ما أقبل إليه طالب معتف :

تَرَاهُ إِذَا مَا جِئْتَهُ مَتَهَلِّلاً      كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ الَّذِي أَنْتَ سَائِلُهُ

وهذه صورة ألح عليها المتأخرون ، وكرروها وأعادوها في شعرهم بعده ،  
يصفون المتفضل وهو يجود بماله قرير النفس باش الوجه كأنه يتقبل الهدية ،  
يأخذ ولا يعطى — كما رأينا في الفصل السابق .

وأما الأعشى فقد مدح كثيراً ، وشكر كل من أهدى إليه أو أغدق عليه  
حتى جنح إلى المسألة والتكسب ، فقليل فيه إنه أول من سأل بشعره ، وهو يصف  
كذلك الشجاعة والكرم ، وأصالة النسب وحماية الجار وإغاثة المكروب ، ولا  
يخرج في صفات ممدوحه عن المثل العليا عند العرب والصفات الفاضلة المفضلة ،  
ويغالى في مديحه حتى يخرج عن حدود التصديق ، فيقول في هودة الحنفى :

هَتَى لَوْ يُنَادَى الشَّمْسُ أَلْقَتْ قِنَاعَهَا      أَوْ الْقَمَرُ السَّارَى لَأَلْقَى الْمَقَالِدَا

وهذه صورة بارعة في علو المقام وشدة الهيبة ، ينادى الشمس فتطيعه ،  
وينحطب القمر فيلبّيه ، ويضيف الأعشى إلى ذلك أن ممدوحه أحلم من قيس  
وأجراً من الأسد ، يستخف بالجموع ويستهن بالشجعان ويعدو وحده على  
الجموع ولو بلغ الرجال ثمانين . ويمتدح سلامة بن فائش أحد أمراء اليمن فيشيد  
بشجاعته وبأسه ، لأنه يسبى النساء فلا يدفع فيهن مهراً ، ويسوق النوق في  
الغارات إلى بيته لتقيم في فنائه وتضاف إلى ملكه ، وهو قوى معطاء يهلك ماله  
حين يشتد القحط في الشتاء وتهزل المرضعات ، فيجبر الشعب ويطعم الجائع  
ويكسو العارى ، فكأنه وحده مصدر جميعات للإسعاف في عصرنا الحاضر ،  
يقوم بمفرده مقام الدول والهيئات ، وكذلك كان التعاون والتعاقد في نظر



الجاهلية ، وكذلك كانت المثل العليا في فطر الشعراء . وقصيدة الأعشى في المخلّقى مشهورة ، ولو أنه لم يكن في الأمراء أو الوزراء ، لكنه وصفه كذلك ووضعها في مصافهم ورتبهم .

والخطيئة مدح الزبرقان بن بدر فخصّه بكثير من شعره ، ورأى في آل لؤى سادة نجباء ، يردّون على الجار ما يفقد ، ويعطونه حين يعطب ، وينقذونه من الهلكة والتلف ، ولا يظهرون الامتنان عليه ، فيقول فيهم :

سِيرِي أَمَامَ فَإِنَّ الْأَكْثَرِينَ حَصَى      وَالْأَكْرَمِينَ إِذَا مَا يَنْسَبُونَ أَبَا  
قَوْمٌ هُمُ الْأَنْفُ وَالْأَذْنَابُ غَيْرُهُمْ      وَمَنْ يُسَوِّي بِأَنْفِ النَّاقَةِ الذَّنْبَا  
قَوْمٌ يَبِيتُ قَرِيرَ الْعَيْنِ جَارَهُمْ      إِذَا لَوَى بِقَبْوَى أَطْنَابِهِمْ طَنْبَا (١)

فهم أكثر الناس عدداً وأكرمهم أباً ، في الذروة من السمعة والعزة ، يعيش جارههم قرير العين موفور الكرامة مكفى المثونة ، وهذه أخلاق جاهلية كلها ؛ وكذلك مدحه في آل شماس ، يتناول القبيلة كلها فيرى أنهم ينعمون ولا يكفرون نعمتهم بالمنّ والذكر ، شجعان مطاعين ، والخطيئة يمدح على طريق البداوة ، فيرسم القوم والقبيلة وهو يمدح الرئيس والوجيه ؛ ويفصح عن عاطفة العرفان بالجميل ، فيشكر العطاء ويثني على المال واليد ، فقد انتشلوه من فقر وحاجة . ومدح الفرزدق كثيراً من العمال والولاة والوجهاء في العهد الأموي فنظر إليهم نظرة الشعراء الجاهليين ، فأثنى على الشجاعة والكرم وأصالة النسب . وقال في بلال إن كفيه كالحيا تسقيان الأرض ، وإن العيس تسعى إليه كما يسعى البشر ، وإنه كريم :

فَكَمْ مِنْ عَدُوٍّ يَا بِلَالُ خَسَاتُهُ      فَأَغَضَتْ لَهُ عَيْنٌ عَلَى مَا يَرِيْبُهَا  
رَأَيْتُ بِلَالًا يَشْتَرِي بِتِلَادِهِ      مَكَارِمَ أَخْلَاقٍ عَظَامَ رَغِيْبِهَا

(١) لوى : شد وعقد .

فهو يقهر الأعداء ويشترى الحمد بالمكارم والعطايا . وكذلك يمدح الحجاج  
ونخالد بن عبد الله القسري ، يشكرهما على النعمة ويدعوهما إلى إنقاذه مما هو فيه  
من ضنك في العيش وحاجة إلى المال .

وجرير ، مدح القواد والأمراء فأثنى على كرمهم وشجاعتهم وتكسب  
بمديحه ، واتبع الأساليب العربية القديمة فيه ، فجعل الحجاج أثقب الناس  
شهاباً ، وهدد به الأعداء ، فقال :

إِذَا سَعَرَ الْخَلِيفَةُ نَارَ حَرْبٍ      رَأَى الْحَجَّاجَ أَثْقَبَهَا شِهَابًا  
تَرَى نَصْرَ الْإِمَامِ عَلَيْكَ حَقًّا      إِذَا لَبَسُوا بَدِينَهُمُ ارْتِيَابًا  
ثم قال إنه ماض على الغمرات ، منع الرُّشا وأرى الناس سبيل الهدى ، ونكّل  
باللصوص وشفى من الفتن :

مَنْ سَدَّ مُطَّلَعَ النِّفَاقِ عَلَيْهِمْ      أَمْ مَنْ يَصُولُ كَصَوْلَةِ « الْحَجَّاجِ » ؟  
أَمْ مَنْ يَغَارُ عَلَى النِّسَاءِ حَفِيفَةً      إِذْ لَا يَثْقَنُ بَغِيرَةَ الْأَزْوَاجِ ؟

وهذه أخلاق عربية ولدت مع هذه الأمة ، وظلت مثلاً أعلى لكل شاعر  
عربي يرى في الكرم والسخاء والشجاعة والبطولة وحماية الجار والغيرة على النساء  
والحفاظ على الأعراض ومنع الرشوة والفساد والتنكيل باللصوص وإشاعة العدل  
والخير ، ما يمدح له الرجل ويثني عليه ويشاد بفضله . ولذلك لم يتعد المديح  
في أغراضه هذه الصفات خلال العصر الأموي كله ، والعرب سادة في الحكم ،  
وقادة في الجيش ، وحكام في الولايات والمقاطعات ، يمدّون أعناقهم إلى ماضيهم  
في الإباء والنخوة والحمية فيستحون أن يكونوا على غير ما كان عليه آباؤهم  
وأجدادهم ؛ ويرى المداحون في الإبقاء على هذا الخلق العربي والتعلى بصفاته  
مادة للمديح وواسطة للحمد والثناء .

ولما كان العصر العباسي ، توزعت المناصب وكثرت الإمارات والوزارات ،  
وتفخم الملك ، فكان في كل ولاية أمير وفي كل إقليم حاكم ، فانصرف الشعراء  
إلى هؤلاء الوجهاء والسادة يمدحون ويتقربون إليهم ويتكسبون عندهم ويطلبون  
قضاء حاجة وبلوغ أوب . فبشار حين مدح وزير المهدي ، اعترف بأنه طال  
انتظاره للثواب ، وحين توجه إلى غيره من آل برمك قال إنه حلب بشعره راحتي  
الممدوح قدر كما يدرّ السحاب مع الرعد ، ذلك لأن الأخلاق دبّ إليها الفساد  
فكثر القول وراج النفاق ، وأصبح التصديق في محنة فلم يكن يؤمن الممدوحون  
بكل ما يقال ، وإنما كانوا يعدون الكلام بضاعة وتجارة يروجها من يستطيع ،  
ويسيرها من أوغل في البيان وتصرّف في الشعر ، من غير أن تصدر غالباً عن  
قلب مؤمن بما يقول ونفس مخلصه فيما تنشد . وكان الشعراء يحسون هذا ،  
ويعلمون أنهم في حاجة إلى أن يؤكدوا المديح ، وإلى أن يسرفوا في التعظيم والمبالغة ،  
لعلهم ينالون ويعودون بالجائزة والعطية والمنحة فدخل المديح غلوّ عجيب ،  
واضطرب الشعراء إلى أن يرفعوا الوزراء والوجهاء والأمراء في مدحهم إلى مرتبة الخلفاء  
والملوك ، وإلى أن يسبغوا عليهم ألقاباً فضفاضة ، حتى اختلط على الناقد التفريق  
بين ما قيل في الخلفاء وغير الخلفاء ، لتقارب الصور والصيغ ، وأحسّ الشعراء  
بهذا فحرموا الإطالة في المديح وكرهوا الإسراف فيه فقال شاعرهم :

وإذا مروّ مدح امرأ لنواله      وأطال فيه فقد أراد هجاءه  
لو لم يقدر فيه بعد المستقى      عند الورود لما أطال رشاءه

وأصبح المديح حرفة ومهنة ، يبذل صاحبها ماء وجهه في سبيل المال ، وغدا  
الفحول من الشعراء كرهون أن يكونوا في سلك الشعراء ينظمهم اسم واحد لكثرة

ما ابتذل الشعر واقترن بالضعفة وخاصة في القرنين الثالث والرابع ، فنفى أبو فراس الحمداني عن نفسه صفة الشاعر وقال :

نَطَمْتُ بِفَضْلِي وَاُمْتَدَحْتُ عَشِيرَتِي وَمَا أَنَا مَدَّاحٌ وَلَا أَنَا شَاعِرٌ

ذلك لأنه أمير يعتز بمكانه من العرب ونسبه في القبائل ، فلا يرى أن يسلك مع هؤلاء المداحين الذين اتخذوا الشعر آلة للتكسب ، يحملون قصائدهم إلى أبواب الوجهاء والوزراء والأمراء فيؤذن لهم بالوقوف بين أيدي هؤلاء ، وينشدون قصيدتهم ثم ينصرفون بصرة صغيرة أو كبيرة ، وهم بها مستبشرون فرحون . والمتنبى تعاضل حتى اشترط أن لا يقف بين يدي مدوحيه ، فأنشد قاعداً ، ولذلك سقط الشعر ونزل عن صولجانه وعزته وكرامته لهذا المديح التجاري ، بعد أن كان للشاعر المقام الرفيع تنهى القبائل بعضها بعضاً بنبوغ الشاعر وتفرح لنشيدته وتقوم وتقعده لقوله ، وانقضى ذلك الزمن السحيق حيث يمجّد الشاعر وتفرش الولاة لمقدمه ، وتصنع الأفراح لانتقاله ، ويحل من الملوك محل الأخ والحدن والصديق يحكم في أموال الملوك ويقرب كما قلنا . وذلك لأنه كان يخص شعره بالملك والخليفة فلا ينحدر ولا يسفل ، ولكنه امتدح من دونهم وأصبح يبغى في صيده الأسد والهر معاً ، ويعود بغنيمة حيناً أو يرجع صفراً اليدين أحياناً ، كما قال المتنبي :

وشرُّ ما قنصته راحتي قنصُ شهب البزاة سواء فيه والرَّخْمُ

فكثر الفقر بين الشعراء ، وأصبح النقاد يقولون : « أدركته حرفة الأدب » ومرد ذلك كله إلى هذا المديح الذي نعرض بعض صورته العباسية عرضاً سريعاً لنتبين الغاية التي كان يهدف إليها من بلوغ المال وقضاء الحاجة والسعي في لقمة العيش . وقد لازم العصور العباسية كلها ، وورثنا إلى اليوم نظرة الناس إلى الشاعر المداح ، فلم يخلف الشعراء المعاصرون ظن النقاد وقلدوا العباسيين في ذلك ، فأدركتهم حرفة الأدب كذلك ، واويلتاه ، وراحوا يمدحون إذا نالوا

ويهجون إذا حرموا ، كأنهم يحملون قيثارة المديح بيمنهم ليطربوا السامع ، فإذا رأوا فيه الصمم والغفلة عن نشيدهم تناولوه بسياط الهجاء ، وكذلك يختارون الدواء لكل علة ، ويجدون القول في كل ميدان .

وقد قال بشار في أمير من آل برمك ، يعده بالمدح ويطلب منه الكرم :

فإن تُعْطِنِي أَفْرِغْ عَلَيْكَ مَدَائِحِي      وَإِنْ تَأْبَ لَمْ يَضْرِبْ عَلَيَّ سِدَادُ  
رَكَابِي عَلَى حَرْفِ وَقَلْبِي مَشِيعٌ      وَمَا لِي بِأَرْضِ الْبَاخِلِينَ بِلَادُ

وهذه صراحة في السؤال لم نشهدها في الأمويين والجاهليين قبلهم ، وطلب لم يعرض له الأجداد من شعرائهم بهذه السهولة وهذا الإلحاف ؛ وذلك لأن المديح يورث الغنى ويكسب الترف ويقتل العدم ، فيقول بشار :

لَمَسْتُ بِكَفِّي كَفَّهُ أَتَبَغَى الْغِنَى      وَلَمْ أَذَرْ أَنَّ الْجُودَ مِنْ كَفِّهِ يُعْدِي  
فَلَا أَنَا مِنْهُ مَا أَفَادَ ذُو الْغِنَى      أَفَدْتُ وَأَعْدَانِي فَأَتَلَفْتُ مَا عِنْدِي

وهذان البيتان أعجبا النقاد واستثارا مواطن التقريظ في كتبهم ، لأن الشاعر يجد في الجود عدوى تنتقل من الأيدي إلى الأيدي ، فهي عادة تلتف الأموال . والشاعر يصف الممدوح بأنه موضع العطاء ، يصيب القريب والبعيد ماله وسخاؤه ، ويطعم الفقراء ويعيل الضعفاء :

يَسْقُطُ الظَّيْرُ حَيْثُ يَنْتَشِرُ الْحَبُّ      وَتُغْشَى مَنَازِلُ الْكُرَمَاءِ  
لَيْسَ يُعْطِيكَ لِلرَّجَاءِ وَلَا الْخَوْفِ      وَلَكِنْ يَلِدُ طَعْمُ الْعَطَاءِ

فالشاعر يهتدى إلى الممدوح كما يهتدى الطير إلى مواقع الحب ، فيغشاه وينزل عنده لينال من سيده نوالا خوفاً ، ولكن طمعاً بالالذة وسعيّاً وراء جمال العطاء ، وكذلك يبين الشاعر أن الممدوحين كانوا يعطون أحياناً عن خوف — كما كنا نقول قبل قليل — وقد تناول بشار في مدحه إلى هذا معاني القدماء في



الإعجاب بالشجاعة والسخاء وقتل الأعداء وخوض المعارك ، وأشاد بأن أميره صنعه ذا غنى وجعله ذا ثراء بعد أن كان يغيوص في العدم والفقر يستجدي الأكف ويستندى النفوس . وكذلك كان العباسيون من الشعراء يطلبون العطية صراحة ويسألون الهدية إلحافاً ، ويقفون من الأغنياء موقف الصاغر المستنجد ، فامتألت كتب الأدب ودواوينه بهذا اللون من المديح ، واحتاج الكتاب والمؤلفون إلى أن يخصصوا فصولاً من كتبهم بالهدية والعطاء ، فألف الخالديان كتاباً « في التحف والهدايا » جمعاً فيه ما قال الشعراء وهم يطلبون الهدية ، وما قالوه وهم يشكزون للمهدي ، وذلك ثقیل على نفوسنا في العصر الحاضر ، وقد أصبح للعرض والكرامة عند الكاتب الحر معنى بعيد عما كان في نفوس كثير من هؤلاء الشعراء المدحجين . فالسائل في عرفنا يشبه المستعطى ؛ يطلب بمدح ، ويشكر عنا العطية بمدح ، حتى كان في الشعر شبه بالأوراق التي تقدم اليوم في طلب الحاج واستنجاز العطية وبيان فقر الحال ؛ ولن نضرب لذلك كثيراً من الأمثال وإنما نورد صورة واحدة منها لشاعر عباسي :

فأبو العتاهية يهدي إلى الفضل بن الربيع نعلاً ، ويتمنى معها بشعر يرسل إليه أن يشرك خدّه بالنعل :

نَعْلٌ بَعَثْتُ بِهَا لَتَلْبَسَهَا      تَمْشِي بِهَا قَدَمٌ إِلَى الْمَجْدِ  
لو كان يَصْدُحُ أَنْ أَشْرَكَهَا      خَدَى جَعَلْتُ شَرَاكَهَا خَدَى!

وما نرى كثيراً من الناس يقبلون بأن ينسب إليهم هذا الشعر إلا إذا كان في المتصوفة حين يتوجهون إلى الله أو إلى رسوله ، فعند ذاك تتصاغر النفس وتتضائل ، ولها أن تقف من الخالق ضارعة ذليلة ، ولكنها لن تقف من الوزير أو الأمير الموقف نفسه ، فذلك ما يأباه عزيز أو كريم .

وظل الشعراء يبالغون في ذلك حتى قال أبو نواس في « الحصيب » :

أَنْتَ الْخَصِيبُ وَهَذِهِ مَصْرُ فَتَدَفَّقَا فَكَلَاكُمَا بَعْرُ  
وَيَحِقُّ لِي إِذْ صِرْتُ بَيْنَكُمَا أَنْ لَا يَحِلَّ بِسَاحَتِي فَقْرُ

وهكذا ينتجع الشاعر مرابع الأجواد يلتمس عندهم النعم والعطاء ، يبدي  
ويعيد في ذكر فقره وحاجته ، لعلّه يبدل عسره إلى يسر ، حتى ليقول في  
الممدوح إنه أبوه كما قال أبو نواس :

وَكُنْتَ أَبًا سِوَى أَنْ لَمْ تَلِدْنِي رَحِيمًا أَوْ أَبَرُّ مِنَ الرَّحِيمِ

ومسلم بن الوليد ، مدح الوجهاء والرؤساء كذلك فأجاد ، وأبان عن قصده  
المال والعطاء ، وركب الطريقة التقليدية ليبلغ إلى امتداح الشجاعة والبطولة ،  
فيقول فيه إنه قائد مغوار في سبيل الدين يكسب الحمد بفعاله العظيمة ، وإنه  
يستصغر الدنيا إذا عرضت له في همة أو نائل أو موعد :

فَلَأَنْتَ أَمْضَى فِي اللَّقَاءِ فِي النَّدَى مِنْ بَاسِلٍ وَرَدٍ وَغَادٍ مَرَعِدٍ  
أَعْطَيْتَ حَتَّى مَلَّ سَائِلُكَ الْغَنَى وَعَلَوْتَ حَتَّى مَا يَقَالُ لَكَ أَزْدِدِ

فهو شجاع وكريم ، بل إنه أسد في الحرب ومخابة في الكرم ، وقد أعطى  
حتى ملّ السائل كثرة الغنى لعطائه فما يستريده ، وبلغ الذروة في الشجاعة  
والمجد فما وراءها ذروة . ومن أحسن مدائحه في يزيد بن مزيد ، حين  
مدحه بشجاعته في الحرب وعمله في القتال فقال :

بَقِثَرٌ عِنْدَ افْتِرَارِ الْحَرْبِ مَبْتَسِمًا إِذَا تَغَيَّرَ وَجْهُ الْفَارِسِ الْبَطَالِ  
مَوْفٍ عَلَى مُهْجٍ فِي يَوْمِ ذِي رَهْجٍ كَأَنَّهُ أَجَلٌ يَسْعَى إِلَى أَمَلٍ  
يَنْزَالُ بِالرَّفْقِ مَا يَغِيَا الرِّجَالُ بِهِ كَالْمَوْتِ مُسْتَعْمِلًا يَأْتِي عَلَى مَهَلٍ

يضحك في الحرب لأنه يعرف أنها أقل من همه وأصغر من أن تخيفه ،



والفرسان الأبطال من أعدائه يخشونها ويرتعدون منها ، فهو كالأجل يقضى على من يريد أو كالموت يستبطن ضحاياه لكنه يسقيهم الكأس الأخيرة . وقد تعودت الطير أن تتبعه في كل مرتحل لأنه يسوق إليها دائماً جثث الأعداء وهاماتهم فيقرها وتنعم بخيراته . ونلاحظ أنه يركب طريقة القدمات في احترام الشجاعة ، وتقديس البطولة ، لكنه يستعمل الصور البديعة والمعاني البليغة ، فيحلق في ذلك ويفتح الطريق لأبي تمام والمتنبى في رسم الممدوح ووصف شجاعته ، فقد تسلم قبلهما راية المديح وشرف القيادة ، فجاء بالأجل والموت والدهر ، وجعل الممدوح يتحكم بالمعارك والغزوات كأنه يعرف خواتيمها ونتائجها ، على ثقة من النصر والظفر .

وقلده أبو تمام في ذلك فلاً ديوانه بهذا المديح ، وقدس كذلك البطولة في صور رائعة ، وصف فيها جلائل الأعمال في الحرب والسلام ؛ فقال في ممدوحه إنه فارس الإسلام يحيي نجدة ابن الوليد وشهامة الأبطال المغاوير ، وهو عجيب حين يشرك الناس معه في امتداح من يريد :

كريم متى أمدحه أمدحه والورى      معى ومتى ما لمته لمته وحدى

فهو ينطق بلسان العالم ، ويتحدث بجنان العرب والمسلمين جميعاً ، يسرون معه في مديحه ، لأنه صادق لا ينطق عن كذب ، وقد وفق أبو تمام في مدائمه هذه حتى لنستطيع أن نصنع من مجموعها ملحمة إسلامية تعدد البطولات وترسم الغزوات ، لو انتظم عقدها في كتاب لكانت أسبق من الشاهنامة في وصف الأجداد والمفاخر ؛ وهو يكثر في ديوانه من تعداد الأعلام التاريخية يضرب بها المثل ، وقد تبعه في ذلك الشعراء بعده ، قال أبو تمام :

إقدام « عمرو » في سماحة « حاتم »      في حلم « أحنف » في ذكاء « إياس »<sup>(١)</sup>

(١) هو عمرو بن معد يكرب ؛ وإياس هو ابن معاوية ، كان قاضياً بالبصرة .

لا تنكروا ضربى له مَنْ دُونَهُ مثلاً شروداً فى الندى والباس  
فالله قد ضرب الأقلَّ لنوره مثلاً من المشكاة والنبراس (١)

وهكذا جمع لممدوحه صفات القدماء والمحدثين من أبطال الدنيا العربية ،  
وجمع من القرآن ما دعم به نظريته فى ضرب الأمثال والاستشهاد بالرجال .

والبحترى سار فى السبيل نفسه ، فجعل ممدوحيه مشاعل تضىء فى الكرم  
تتوقد فتطفيء الكواكب ، وسيوفاً مشهورة على الأعداء ، وشبههم بالربيع يجلبون  
النور والزهرة والعطر على الدنيا ، وأيادهم عنده مذكورة تزيد فى لمعانها على  
الشمس (٢) :

يَدُكَ لَكَ عِنْدِي قَدْ أَبْرَ ضِيَاؤُهَا عَلَى الشَّمْسِ حَتَّى كَادَ يَغْبُو سِرَاجُهَا

وهكذا كانت الأفعال الحميدة مشكورة مذكورة فى مغالاة وإسراف ،  
ترتفع على النجم وتخفى نور الشمس ، يغص بها ديوان البحترى فلا يقف لها  
إحصاء ولا يوفىها عرض أو نقد . ومثله ابن الرومى فقد غالى كذلك وأسرف  
فقال :

مهما أَتَى الناس من طول ومن كرم فَإِنَّمَا دَخَلُوا الباب الذى فتحا  
يُعْطَى المزاح ويعطى الجدُّ حقَّهما فالَمُوتُ إِن جَدَّ والمعروفُ إِن مزحا

وذلك يحيرنا ويجعلنا نتساءل عن مبلغ الصديق عند هؤلاء الشعراء ، وهل  
نؤمن بما يقولون ؛ وعند ذاك نقع فى مشكلة مع التاريخ لا ننتهى فيها إلى معرفة

(١) يشير إلى الآية الكريمة فى قوله جل وعلا : «الله نور السموات والأرض ، مثل  
نوره كشكاة فيها مصباح» - والمشكاة : كوة غير نافذة - والنبراس : المصباح .

(٢) مدح ابن الرومى أيادى الناس وأناملهم حتى قال فى ابن المدبر :  
قبل أنامله فلسن أناملا لكنهن مفاتح الأرزاق

أكرم الكرماء وأشجع الشجعان ؟ ومن هو الذى فتح الباب وغطى نور الشمس ؟  
وارتفع فوق الناس ذكره واشتهر فوق العالم أمره ؟ حتى جاء المتنبي فبلغ بهذه  
المغالة درجة نضلّ معها في هذه السبيل للموازنة بين الرجال وأقدارهم ، فقد قال  
في سيف الدولة :

قَتَلْتُ نَفُوسَ الْعِدَى بِالْحَدِيدِ      د      حَتَّى قَتَلْتُ بِهِنَّ الْحَدِيدَا  
كَأَنَّكَ بِالْفَقْرِ تَبْغِي الْغَنَى      وبالموت في الحرب تبغى الخلودا

وأرانا كيف يقتل الشجاع الحديد ويبلغ بذلك سدة الخاود . ورسم ممدوحيه  
كالبدور والشموس ، وجعل همهم فوق الهمم وبالع حتى جعل البحر يستقى من  
كرمهم ، وقال في فاتك :

أَبُو الشُّجَاعِ أَبُو الشُّجْعَانِ قَاطِبَةٌ      هَوْلٌ نَمَتُهُ مِنَ الْهَيْجَاءِ أَهْوَالُ  
تَمْلِكُ الْحَمْدَ حَتَّى مَا لِمَفْتَخَرٍ      فِي الْحَمْدِ حَاءٌ وَلَا مِيمٌ وَلَا دَالٌ

فهل يذكر المتنبي كم ترك لسيف الدولة بعد مدحه فاتكاً ؟ ! إنه يقول إن  
فاتكاً تملك الحمد حتى ما لمفتخر حمدٌ ، فلم يجعل أى فرق في هذه المدائح بين  
الممدوحين ، ولو جردت من عنواناتها لضللنا السبيل إلى معرفة اسم الممدوح  
وطبقته من الأمراء والملوك والقواد لأنه كان يعتمد في أقواله على المبالغة والتهويل ،  
فيكبر الـمغير ويصغر العظيم ، وهذا دليل على أنه كان يصدر في ذلك عن  
لسانه لا عن جنانه ، فلم يكن يقوم على عاطفة ، وإنما على عقل ينصرف وفاق  
لـغاية والهدف والطموح .

ولم يختلف عنه الشعراء الذين جاءوا بعده أو عاصروه متأثرين بأساليبه ،  
فقد كان السرى الرفاء وابن نباتة السعدى ومهيار الديلمى يمدحون كما كان  
يمدح في صور قريبة من صورته يشنون على الشجاعة والكرم ، ويرسمون الوجوه  
الباشة والأيدى الكريمة ، وقد زاد بعضهم فأرسل يمدح في تهنئة أو فرح بزواج

وولادة أو شفاء بمرض أو مناسبة عيد أو صيام رمضان ، كأنهم يسجلون الأفراح  
 بمدايح لا تفوتهم منها شاردة أو واردة ؛ فهم الصحفيون الرسميون والمؤرخون في  
 الشعر ، حين يلازمنهم الممدوحين ويصدرون عن أحوالهم بلاغات لكل حادث طارئ  
 عظيم أو أسف . ولذلك كانوا يعمدون غالباً إلى الإنكسار فيصورونه انتصاراً ، أو  
 يخففون من وقعه وحدة الخزي فيه ، حتى يخيل للناقد المتتبع أن الأعداء كانوا  
 يفرون دائماً أمام هؤلاء الممدوحين ، ويولون الأدبار فيتولاهم الذل والخوف والخزع  
 والرهبة ، وأما النصر والظفر والهيبة والإشراق والعظمة فكلها هؤلاء الوزراء والأمراء  
 والقواد ، لم نسمع ببطولة جندي معين أو شجاعة الرعية ، وإنما رأينا العجاج يثور  
 والسيوف تفعل في الرقاب ولحنا العدو بعد ذلك بعضه يولى منهزماً وبعضه قد ملأ  
 الأرض بجثثه وقد حام حولها الطير ، فالمنية في أيدي هؤلاء الممدوحين يتصرفون  
 بها كيف يريدون ، وينزلون الضربات القاصمة على من يعادون . حتى ليتساءل  
 بعض المستشرقين إذا كان هؤلاء الشعراء يجهلون الحروب أو أنهم لم يشهدوها ،  
 فكأنهم يصنعون البيانات بالانتصارات يتقدمون بها كتهنئة لعودة هؤلاء العظماء  
 إلى قصورهم ، يغدقون على شعرائهم من جديد ، فكأنهم يمتطرون الشعب كله  
 بكرمهم ويعمون الدنيا بخيراتهم ؛ ولعلمهم كانوا يعتقدون أن الجيش يصالح بالرأس  
 وحده وينتصر برأيه ، فإذا فسد انهار الجيش كله . وقد أدرك أحمد شوقي هذه  
 الفكرة في القرن العشرين فقال : « ولا الجيش إلا ربّه حين ينسب » ولعله  
 استخلص ذلك من قراءاته لأدب المديح فسار هو نفسه على هذه الخطة ، ولم  
 يخرج بذلك عن تشبيهات القدماء ، ووصف قوة الوزراء وبسالة القواد ونظر إلى  
 هؤلاء من خلال الدين وحماية الإسلام كما نظر العباسيون من قبل ، فأشاد  
 بمصطفى كمال وشبهه بخالد بن الوليد ، وذكر تقاه وبلاءه وعظيم تفانيه مع قواده :  
 قَوَادُ مَعْرَكَةٍ وَرَادُ مَهْلَكَةٍ      أَوْتَادُ مَمْلَكَةٍ آسَادُ مُحْتَرَبِ  
 بَلَوْتَهُمْ فَتَحَدَّثَ كَمْ شَدَدَتْ بِهِمْ      مِنْ مَضْمَحِلٍّ وَكَمْ عَمَّرَتْ مِنْ خَرَبِ

فبسط فضل هؤلاء الرجال الذين تعاونوا مع مصطفى كمال للوصول بالجيش إلى شاطئ النصر . وليس عجباً أن يمدح شوقي بطل الترك ، فقد كان يعجب بالبطولة أنى كانت ، فمدح القائد نابليون حين وقف على قبره بباريس ، ورسم عصاميته وبطولته حين اصطاد شاه الروس والنمسا ؛ ومدح سعد زغلول سياسياً وزعياً .

وشارك الشاعر إسماعيل صبرى فى مديح الوجهاء والوزراء ، فأشاد بصفات واصف غالى ، وأثنى على مواقفه الغر فى الدفاع عن الشرق والذود عن أمجاد العرب .

وقال حافظ إبراهيم فى سعد زغلول إنه زعيم النيل يفيض النور من طلعتة ، وخلاص البلاد يكون على يديه .

والشعراء المعاصرون فى الأقطار العربية يمدحون الوزراء والوجهاء ، والقواد ، وأرباب المناصب الوزارية العالية ورؤساء « الدوائر » ، ولكنهم يعتمدون على الصور القديمة وتعابير الأجداد ، وكثيراً ما يحولون الرثاء لهاته الشخصيات إلى مديح يعدّون فيه فضائل هؤلاء الرجال ومزاياهم وأعمالهم وكرههم وبطولتهم ، ولن نعرض له فقد تناوله كتاب « الرثاء » فى هذه المجموعة ، وتستطيع أن ترجع إليه لترى كيف كانوا يمدحون وهم يرثون فى أساليب تشبه الشعر العباسى ، كما رسمناه قبل قليل .



### الفصل الثالث

#### مدح العلماء والأدباء

امتدح الشعراء شعرهم بكثير من العجب والتهيه ، فصوروه دائراً على الأيام  
يتنقل على كل لسان ويجلجل في كل مكان ، وظنوا أن شعرهم وحده جدير  
بالتقدير تنبثق منه معاني غيرهم من الشعراء ، فهم الصوت والآخرون الصدى كما  
قال المتنبي ، ولم يتخلف واحد منهم عن الإدلال بشعره ؛ ولعلمهم بذلك يذكرون  
الممدوح بعلو قدرهم على الأقدار ورفعة شعرهم على الأشعار ، فلن يقول فيه قائل  
أكثر مما قالوا ولن يبدع فيه أجمل مما أبدعوا ، فالنفيس يهدي إلى النفيس كما  
قال أبو فراس . ومن الطريف أن نعرض لأقوالهم وأن نوازن بين مدائحهم لأنفسهم ،  
ولكن ذلك أدخل في باب « الفخر » ، ولهذا الفن الأدبي كتاب في هذه المجموعة  
يتطرق إليه ويتناوله بالعرض والتحليل .

ونحن هنا إنما نستعرض ما قاله الشعراء في غيرهم من الأدباء والكتاب  
والشعراء ، لنقف على مبلغ إعجابهم بالعلم والأدب وصناعة الكتابة وفضل  
القريض ، على اختلاف العصور ؛ فقد كانوا يجدون فيمن يمدحون صفوة الأمة  
وخلاصة المفكرين فيها ، يشنون على قوة البيان وعذوبة اللسان ويقظة الجنان ،  
وروعة القلم وحسن الكتابة .

فقد مدح بشار واصل بن عطاء (١) وأكثر فيه ، قبل أن يدين الشاعر  
بالرجعة ففضله على غيره من العلماء ، حين سمع خطبة من خطبه فقال :

أبا حذيفة قد أوتيت معجبة في خطبة بدّهت من غير تقدير

---

(١) أبو حذيفة واصل بن عطاء الغرالي ، المتوفى سنة ١٨١ ، كان من الأئمة البلغاء  
المتكلمين ، وكان يلثغ بالراء لكنه في خطبه يتخلص منها ببراعته - انظر ابن خلكان .



وإنَّ قولاً يروق الخالدين معاً لمسكت مخرس عن كل تحبير

وقال فيه كذلك يصف خطابته وطريقة لفظه ومجانبته الراء وهو ألغ :

تكلفوا القول والأقوام قد حفلوا وحبروا خطباً ناهيك من خطب  
فقام مرتجلاً تغلى بداهته كمرجل القين لما حف باللهب  
وجانب الراء لم يشعر بها أحد قبل التصفيح والإغراق في الطلب

فشبه ارتجاله بغليان المرجل واللهب يحفه ، فصور اندفاعه وتتابع كلامه  
من غير توقف أو تباطؤ ، وذكر تجنبه الراء في خطبه وأقواله ؛ وذلك يدل على  
دقة في التعبير وتنبيه إلى واقع الخطيب ، في بيان فصيح .

وقال أبو تمام يمدح محمد بن عبد الملك الهاشمي لحكمته وبلاغته وتدفقه  
في خطبه كذلك :

ميهات أبدى اليقين صفحته وبان نبع الفخار من غربة  
لقمان صمتاً وحكمة فإذا قال لقطنا الياقوت من خطبه

فهو في بيانه يشرق باليقين ، وهو في حكمته شبيه بلقمان ، فإذا تحدّث  
نثر الياقوت ، فهبّ الناس يلتقطون الدرر . وأبو تمام كغيره من الشعراء يتخذ  
القدماء من يونان وغيرهم مثلاً علياً في الفلسفة والحكمة والعقل والمنطق ، يشبه  
معاصريه بهؤلاء الفلاسفة ، ويتخذ طريقة التشبيه المادية كذلك فيقرن العقل  
بالجواهر .

وأبو تمام مدح الشاعر الكاتب محمد بن عبد الملك الزيات فقال فيه :

لَكَ الْقَلَمُ الْأَعْلَى الَّذِي بِشَبَاتِهِ تُصَابُ مِنَ الْأَمْرِ الْكَلِيِّ وَالْمَفَاصِلِ<sup>(١)</sup>

(١) الشبابة : حد السيف .

لُعَابُ الْأَفَاعِي الْقَاتِلَاتِ لِعَابُهُ      وَأَرَى الْجَنَى اشْتَارَتْهُ أَيْدِ عَوَاسِلٍ<sup>(١)</sup>  
 إِذَا مَا امْتَطَى الْخَمْسَ اللَّطَافَ وَأُفْرَغَتْ      عَلَيْهِ شُعَابُ الْفِكْرِ وَهِيَ حَوَافِلُ  
 أَطَاعَتِهِ أَطْرَافَ الْقَنَا وَتَقَوَّضَتْ      لِنَجْوَاهُ تَقْوِيضُ الْخِيَامِ الْجَحَافِلُ

فصوّر القلم حادثاً قاطعاً كالسيف يصيب المقاتل ، بل إنّ لعابه سام  
 كالأفاعي يخافه الأعداء ويحبه الأصدقاء ، ولأدبه صيت بلغ مشرق الأرض  
 ومغربها ، يفعل فعل الجيوش في الأعداء ، يقوض الخيام وينزل بالخصوم أقصى  
 الهزائم .

وهذا وصف بديع لأثر البيان في نفوس السامعين ، جعله الشاعر من القوة  
 والهلل ، بحيث قارنه بالجيوش الزاحفة والجحافل الجارية . والبحترى مدح  
 هذا الوزير نفسه فقال فيه :

لَتَفَنَّنْتَ فِي الْكِتَابَةِ حَتَّى      عَطَّلَ النَّاسَ فَن «عبد الحميد»  
 فِي نِظَامٍ مِنَ الْبِلَاغَةِ مَا شَ      لَكَ أَمْرٌ أَنَّهُ نِظَامٌ فَرِيدٌ  
 وَبَدِيعٌ كَأَنَّهُ الزَّهْرُ الضَّأ      حَكَ فِي رَوْقِ الرَّبِيعِ الْجَدِيدِ  
 مَشْرِقٌ فِي جَوَانِبِ السَّمْعِ مَا يَخُ      لَمَقَهُ عَوْدُهُ عَلَى الْمُسْتَعِيدِ

فهو عنده يعطل بلاغة عبد الحميد الكاتب ، وهو فريد في أدبه يحوى من  
 البديع في كتابته ما يحوى الزهر الضاحك في الربيع ، يشرق في جوانب السمع ما  
 يؤذيه عود أو ترديد ، وما يمل سماعه المستعيد ؛ فيه حجج عظيمة تخرس الأعداء  
 وألفاظ كريمة كالجواهر المفردة ، وفيه معان تفوق معاني الخطيئة وليد بن  
 ربيعة ، بعيد عن التعقيد قريب من المراد . وهكذا بسط جمال القول فشبهه  
 بالعدراء في جماله ، ووصف قوته وأثره في النفس فجعله كالنغم الحلو تألفه الأذن

(١) الأرى : العسل - الجنى : كل ما ينحى - اشتارته : جنته وطلفته .

كما تألف الألحان المطربة السامية .

وابن الرومي مدح الكاتب عبيد الله ، فرأى في قدرته على الكلام عجباً ،  
إذ يأتي بوحشيه وآنسه :

وأنت الذي يدعو الكلامَ بِقُدْرَةٍ      فيأتيه وحشئُ الكلامِ وآنِسُه  
وقال فيه بقصيدة أخرى ، إنه إذا ما جرى في حلبة عربية تخلف عن شأويه  
قيس بن ساعدة الأيادي وأكثم بن صيفي ، فهو ثاقب الفكر يصيب كبد  
الصواب في آرائه . والمتنبى قال في عليّ بن عامر الأنطاكي إنه يجمع العلم والحلم  
والحجا :

وأستَكْبِرُ الأخبارَ قبلَ لقائِهِ      فلما التقينا صَغَرَ الخَبَرُ الخُبْرُ  
دعاني إليك العلم والحلم والحجا      وهذا الكلام النظم والنائل النثر  
فاستصغر الأخبار فيه حين لقيه ، ووجده أعلى سمتاً وأعظم مقاماً لأنه على  
شعر جميل ونوال منشور موفور . ومدح الكاتب ابن العميد ، وكان ضليعاً  
في علوم الفلسفة والنجوم فقال :

يتكسَّبُ القصبُ الضعيفُ بكفِّهِ      شَرَفاً على صمِّ الرماحِ ومَفْخَرًا  
ويُبينُ فيما مَسَّ منه بنانه      تيه المدلّ فلو مشى لتبخترا  
من مبلغ الأعراب أني بعدها      شاهدت رُسْطاليسَ والإسكندرا  
وسمعتُ بطليموسَ دارسَ كتبه      متملكاً متبدياً متحضراً

فوصف ابن العميد بالبلاغة والفصاحة ، وقال إنه يملك القلوب بحسن لفظه  
فيتصرف فيها كما يريد ، وجعل قلمه أشرف من الرماح يحصل بها الشرف والفخر ،  
وذلك لأنه لو مسَّ أي شيء عداه لظهر فيه الكبر ومشى تيهاً شرفاً بمن مسه .  
وهو في حكمته كأرسطو ، وفي بأسه كالإسكندر ، جمع بين العلم والملاكمة والحكمة ،

وكان له من فصاحة البدو وظرف الحضر وقوة التفكير ، ما يشبه به بطليموس في الحكمة والمعرفة .

وذكر المتنبي في مديحه رسائل ابن العميد فوصف بلاغتها وجزالة ألفاظها ، فجعلها تفوق كل بلاغة وتعي كل فصاحة ، وهي في بأسها وقوتها كذلك تقتل الأعداء قبل السلاح ، كما قال من قبله من الشعراء . والمتنبي كغيره يتمثل الفضلاء القدماء في شخص ممدوحه فيرى كأنهم عاشوا في عقله وبعثوا في برده من جديد ، فقد كانوا يجدون المثل الأعلى في الفكر والحكمة والعقل عند قدماء اليونان - كما قلنا .

وأما الشريف الرضي فقد مدح صاحب إسماعيل بن عباد ، فرأى قلمه الماضي أجرى من العوالى ، وأجود منها ، فهو يحولك على القرطاس برداً متمنياً :  
لَكَ الْقَلَمُ الْمَاضِي الَّذِي لَوْ قَرَنْتَهُ بِجَرَى الْعَوَالِي كَانَ أَجْرَى وَأَجْوَدًا  
إِذَا انْسَلَّ مِنْ عَقْلِ الْبَنَانِ حَسْبَتُهُ يَحُولُكَ عَلَى الْقُرْطَاسِ بَرْدًا مَعْمَدًا<sup>(١)</sup>

وبذلك قرن قلمه بالرماح ، وشبه كتابته بالثياب الموشاة . وأما التهامي فقد مدح الوزير المغربي الداهية المشهور ، والكاتب الفحل فرأى في كتابته صفو الكلام وبين هو له وقوته :

تَقَلَّمَ أَقْلَامُكَ الْحَادِثَا تَ قَسْرًا وَتَهْمُ نَابَ النَّوْبِ

وجعل حكمته موروثة من آبائه الفرس ، كساها الوزير لفظ قريش ، فجمع المعنى المحكم والأسلوب الرصين ، وكان في بيانه سيد الكتاب . وقد تطور مديح العلماء والكتاب على العصور ، فأصبح الشعراء يعددون أنواع المعرفة التي يجيدها الممدوح ، وبذلك أسفوا إلى درجة النظامين . فقال القادري يمدح السيوطي :

(١) العقل : السجن - الممد : الموشى على هيئة العمدان .

ومعرفة الإعراب أرفع مرتقى      فطوبى لمن يرقى إليه ويصعد  
وعلم المعاني والبيان كلاهما      مراق إلى علم البديع ومصعد

\* \* \*

وزاد هذا اللون من المديح في أواخر القرن التاسع عشر وصدر القرن العشرين حتى ابتذل ابتذالاً ، فأصبح الشاعر يمدح رسالة تصله أو رقعة تبلغه أو كتاباً يتصفحه ، وامتلات الدواوين بما سموه « تقرّظ الكتب » حتى لكأن المؤلفين أنفسهم يطلبون ذلك من الشاعر ، كما يطلب آل المولود شيئاً من الشعر في مديحه يفتتحون به حياته ، أو كما يطلب المتزوجون قصيدة لزفافهم ، فكان المداحون يعمدون إلى تلبية هذه الرغبات والأمنيات ! ويضيفون إليها ما سموه بتاريخ هذه الأحداث ، فاستعملوا حروف الحمل بحيث يكون مجموع الحروف الأخيرة معادلاً لتاريخ هذه المناسبة . وليس هذا من الشعر في شيء إنما هو نظم وتقنية ، يطلبه الطالبون فيلبي النظامون من غير شعور أو عاطفة أو إحساس بما يقولون ، فهو مصطنع متكلف دزيف ، شبيه بهذا الإنشاء الذي يكتبه المأجورون في نميقة ترفع إلى الحاكم ، أو طلب يرسل إلى الحاكم ، أو رسالة تسطر باسم رجل أمي لا يقرأ ولا يكتب ؛ لا تعبر عن نفس كاتبها في شيء . وليست تدخل في موضوع بحثنا هنا ، لأنها ليست من الأدب ، فهو في عرفنا يجب أن يصور نفسية الأديب وحاله حين كتب .

وقد تطرق بعض شعرائنا في القرن العشرين إلى مديح العلماء والكتاب والشعراء ، ونخص صفحات من ديوانه بشيء من ذلك ؛ نورد أمثلة منها لبيان صورة المديح لهذا العصر . ومنهم إسماعيل صبرى ، فقد أكثر من هذا اللون ، وأسهب فيه ، وعزیز علينا أن نحصى ما قال وأن نعرضه جميعه ، فقد مدح كتاب السفر لأحمد زكي ، وكتب إلى صاحبة مجلة يثني على همتها في صحيفتها ، وأرسل إلى شوقي يهنئه ، وإلى محمود خاطر يشكره على مختصر القاموس في اللغة .

وإلى حافظ عن كتابه ليالى سطيح ، وقرظ دواوين الشعراء أحمد نسيم والبارودي وفؤاد الخطيب وشوقي وحافظ ومطران وأحمد الزين ، وقال في ديوان أحمد شوقي :

مرحباً بالقصيد يتلوه للشعر ر أميرٌ يُصغي له أمراء  
وما نجد في أقواله هذه أو مقطعاته جمالاً أو بياناً أو سجعاً ، وإنما نرى أنه

شعر ينخفض عن مستوى شعره .

وحافظ إبراهيم امتدح كذلك ، ووصف الإمام محمد عبده بأنه محب في الدين كل ضلالة ، وحل عقد المشكلات في الإفتاء ، وأن الناس التفوا حوله ، كأنه ابن الخطاب أو علي بن أبي طالب . ومدح الشاعر محمود سامي البارودي بأنه سلب بحار الأرض درّ كنوزها ، وصير منشور الكواكب في الدجى نظماً منضداً بأسلاك معانيه ؛ وأبياته إذا ما تلاها الناس خروا لها سجداً . وامتدح شوقي فجعله بلبل الشعر الصداح ، ثم قال في شوقي وصبري إنهما أعادا عهد الرشيد بآيات شعرهما وملاً المشرق حكمة وبياناً . وامتدح طه حسين وأحمد لطفى السيد ومصطفى صادق الرافعي وتوفيق البكري والمويحيى وأحمد حافظ عوض وأصحاب المقتطف . وقال في مطران إن النثر مشى خاضعاً إليه وألقى الشعر إليه الزمام ، وعقد له اللواء على الشعراء وبايعه بالإمامة فيهم . ولم يقف مدحه على الأدباء من العرب وإنما تناول رجال الغرب فمدح شكسبير لآثاره الراقية مثل روميو وجولييت ومكبث وشيولك وهملت ، وقال إنه مولع بتصوير الطباع ، وهنا أمة التاميز به ، كما هنا الفرنسيين بفيكتور هوغو .

ومدح أحمد شوقي كثيراً من العلماء والأدباء من عرب وفرنجة ، وأشاد كذلك بفضائل أدبهم وكتبهم ، وتحدث عن نهضة العلم في الأزهر . وكان يقول كرميله حافظ مديحاً لكل مناسبة تعرض ، فقد أخذ العرب عن الغربيين عادة الحفلات التكريمية يرسلون فيها الشعر والنثر ، لبلوغ سن معينة أو نجاح في مشروع أو افتتاح لمصرف أو إقامة بنيان جديد أو تأسيس جامعة جديدة . لذلك أرسل مديحه في واصف غالى وذكر ما له من أباد في كتبه الفرنسية



ومقالاته في التعريف بالعرب ، وقال في أدبه إنه ذو شرك تحاذر الغيد منه ،  
وأنه في نظامه كفلك الليل إذا تحلى بالزهر . وقال في أحمد لطف السيد مادحاً  
ترجمته « لكتاب الأخلاق » عن أرسطاليس ، فذكر الفيلسوف اليوناني وحكمته  
وأثنى على المترجم لجمعه بين لغة الإغريق ولغة تميم ، فقال :

أرج الرِّياضَ نَقَلْتَهُ      وَنَسَخْتَهُ نَسَخَ النَّسِيمِ  
وَسَرَيْتَ مِنْ شَعْبِ الْأُمِّ      بَهِ إِلَى وَادِي الصَّرِيمِ<sup>(١)</sup>  
فَتَجَارَتِ اللُّغَتَانِ لِلْغَايَاتِ فِي الْحَسَبِ الصَّمِيمِ  
لُغَةُ مِنَ الْإِغْرِيْقِ قِيَّةً      وَمَا أُخْرَى مِنْ تَمِيمِ

وهذا من النثر المقفى لا يلحق بأذيال الشعر ولا يلم به ، ولكنه جديد على  
الأدب العربي في مثل هذا الشكل وهذا الأسلوب . فخاض فيه الشعراء على أنه  
جديد وفن يتسابق فيه الشعراء والنظامون ، وينشرونه في الصحف ويذيعونه  
على المنابر ، فتهتز الأكف حين إلقائه ثم تحمله الريح مع الغبار الذي تار  
والعجاج الذي هب .

وامتدح شوقي صديقه المؤرخ إسماعيل رأفت نثراً وشعراً ، ولكنه ذهب  
إلى حكمة الدنيا ، وتقلب العالم وفناء الأموال والأشخاص ، معتبراً بالتاريخ ،  
فتشبه بأقوال قس بن ساعدة : « من عاش مات ومن مات فات » . ولشوقي  
قصائد في شكسبير وفي هول كين ، وفي مدح المؤتمرات الجغرافية . وهو في ذلك  
كله يقدس العلم والعلماء . ويشيد بالمعلم ، فيرى أن الأنبياء معلمون ، وأن الله  
حير معلم علم بالقلم القرون الأولى ؛ وأشاد بالأخلاق الرفيعة من وراء ذلك كله ؛  
وانتقل من العلم إلى صناعة التعليم ومن الأدب إلى صناعة التأليف ومن الحكمة  
إلى منرجمى الحكمة ، فمدح الرجال الذين يقومون بهذه الصناعات وأشاد بأعمالهم

(١) الألب : من جبال اليونان - الصريم : واد من أودية العرب .

وما تخلف أعلامهم من بيان وإرشاد وتقى وصلاح .

\* \* \*

وخلال السنين الأخيرة قام في العالم العربي شعور بإحياء مفاخر الأجداد والاحتفال بأعياد مولدهم ووفاتهم ، تقليداً للغرب ، وذكرى مرور ألف عام على هذه الأحداث . وكان في الظن أن تكون رثاء خالصاً وأسفاً عميقاً لفقدانهم . ولكن الرثاء انقلب إلى تكريم ومديح فدخل في هذا الباب من أقوالهم ما نعهده في مدح العلماء والكتاب ، وأصبح لازماً أن نعرض لهذه الحفلات بكلمة موجزة نبين فيها هذا اللون من القول . وقد أقام العرب حفلات للمتنبي والمعري وابن سينا وغيرهم ، وأرسلوا في هؤلاء من الشعر والنثر ما يحسن أن يكون صفحة جديدة لهذا الباب فامتدح الشعراء في أبي العلاء عمق التفكير وسمو التعبير ، وعيشه المتواضع بعيداً عن لذة المرأة ، فقال فيه محمد مهدي الجواهري وشفيق جبري وبدوي الجبل ومحمد البرم . وقد رسم محمد البرم ثورته على الملوك ، ويقظة العروبة في ديوانه فقال .

مَلَأَتْ خِيَاشِيمَ الْعُرُوبَةِ نَعْرَةً      تنوحيّة يُزهى بها من تخامرهُ  
وسَعَّرت في أحشائها الوقْد للذّي      يردّ لها عرباءها لا تناظرهُ

وترى أنهم مدحوه كأنه حتى يسمع نشيدهم وقصيدهم ، فبرهنوا على معرفة وذكاء ، وقالوا ما لم يقله القدماء ، فأنشأوا في شعرهم ما يقوله الناثرون في نقد الأديب وتعريف أدبه ، وأعادوا على المعاصرين عهد عكاظ في التنافس على غرض واحد ؛ فافتخروا بالتراث الذي يملكون من فكر قوى وأسلوب عظيم ، واستطاعوا أن يجدوا في العصامية عند المتنبي وطموحه مجالات القول ، اشترك فيها شعراء العراق ومصر والشام ، وكتّابهم ، والمستشرقون كذلك ؛ فعشنا كأننا في الغرب نقيم الحفل للتكريم والدراسة ، ونصنع ما صنعوا ، فنطبع آثارهم ونحيي كتبهم ونوزعها في المثقفين لبيان الفضائل والمزايا ، فكانت ثروة جديدة

تجمع في كتاب واحد ما قيل في المديح حول شاعر واحد أو كاتب واحد ،  
تخرجه المجامع العلمية أو جامعات عربية أو جمعيات أدبية ، وهذا جديد في باب  
لم يألفه القدماء ، أشرنا إليه إشارة عابرة لأننا رأينا أنه ألصق بباب المديح من  
غيره ، يحسن التوسع فيه لو كان في الصفحات موضع لقول مفصل أو دراسة متوسعة.

## الفصل الرابع

### المديح الديني

#### ١ - الله جل جلاله

خلق الله الوجود فأحسن خلقه ، وأنعم على البشر فأجزل نعمه ، لذلك قامت الأديان كلها بشكره ومديحه وبيان أياديه ونعمه ؛ فأكثرت الكتب المقدسة من ذكره وبيان معجزاته في خلقه ، وفي القرآن الكريم كثير من الآيات في مديحه والاعتراف بجبروته وقوته وخيراته وفضله على المخلوقات جميعاً من حيوان ونبات وجماد . ولذلك سار الشعراء منذ القديم على تقديسه فرأوا في الطبيعة سرّاً جماله وفي تكوين الدنيا جمال عظمت . وبهذا كثر المديح وتنوع فكان حيناً مديحاً سطحيّاً ، وحيناً مديحاً عميقاً ، وأصبح في كثير من الأحيان مديحاً صوفيّاً فاتخذ لونا آخر من ألوان الأدب لا نعرض له في هذا الكتاب إلاّ لما .

ولنما نعرض قبل كل شيء ما كان من مديح ديني خالص ، فنبسط صوراً ونماذج قليلة تلخص هذه الألوان الكثيرة التي كانت منذ فجر الدنيا العربية تصلى للإله وتدعو له ، فلن نستطيع إلى عرضها كلها ، ولكننا نقتصر على شيء منها . فقد قال حسان بن ثابت :

وَأَنْتَ إِلَهَ الْخَلْقِ رَبِّي وَخَالِقِي	بذلك ما عُمِّرْتُ في الناس أَشْهَدُ
تعاليت رَبَّ الناس عن قَوْل مَنْ دَعَا	سواك إِلَهًا أَنْتَ أَعْلَى وَأَمْجَدُ
لك الخلق والنعماء والأمر كله	فإياك نستشهدى وإياك نَعْبُدُ

فأنت ترى أنه اتخذ الألفاظ التي يرددها المؤمنون في صلواتهم وفي عبادتهم

فاستعمل المديح دعاء لله خالقه يشهد بفضله ما عاش ، وليس سواه من خالق -  
وأبو العتاهية أكثر من مديحه للإله جلّ وعلا ، فكان الزاهد المتعبد الموحد :

أيا عجباً كيف يعصى الإلّ ه أم كيف يجحده الجاحد  
وفي كل شيء له آية تدلّ على أنه الواحد

فهو يرى عظمة الإله في كل شيء ، مما يلمح وينظر ، وهو يحمده ويعبده  
كما فعل حسان سواء بسواء فقال :

لك الحمد يا ذا العرش يا خير معبودٍ ويا خير مَسْئُولٍ ويا خير مَحْمُودٍ  
شهدنا لك اللهم أن لست محدثاً ولكنك المولى ولست بِمَجْهُودٍ  
وأنت معروف ولست بموصوف وأنت موجود ولست بمحدود

ويضيف في قوله كما نرى الفكرة التي بلغت إلى أبناء عصره من نظرة جديدة  
إلى الإله ، وفلسفة جديدة في الوجود ، وتعابير طرأت على هذا الضرب من المديح  
حتى كانت نواة للتصوف فيما بعد .

وقد كان كثير من الشعراء يشاركون في هذا المديح الديني ، يكبرون  
الجمال والكمال في خلق الله ، كما فعل أبو نواس حين وصف النبات ، وكما  
فعل ابن الرومي وأبو فراس . وقد تطور هذا المديح حتى أصبح أقرب إلى النسيب  
حين ينشد الشعراء المتصوفة في حب الإله ، ويرمزون إليه بالحبيب ، ويغنون  
في عشقه والتقرب منه ، فيجدون فيه نوراً وأصلاً وسبباً ، ويدخلون الفلسفة  
والعقل والتصور في شعرهم ، فيخرج ذلك من حدود المديح الخالص إلى فن  
التصوف ، وله كما قلنا كتاب خاص يبحث فيه ، تجد فيه الهيام بحب الله  
والاستغاثات والأدعية وغيرها مما تجده في كتب المتصوفة ودواوينهم كابن  
الفارض وابن عربي والحلاج وفي شطحات هؤلاء العلماء .

وامتدح الشعراء الأنبياء كلهم فقالوا في آدم ونوح وإبراهيم ويعقوب ويوسف وموسى وداود وسليمان وعيسى عليهم الصلاة والسلام ، مما تجده في كتب الأدب ومختارات الشعر كالثعالبى وغيره . ولكن هذا المديح كان يعرض لبعض الشعراء في بعض الأحيان لم يتتابع على العصور ، ولم يتطور كما تطور الشعر في مديح المصطفى خاتم الأنبياء ، وفي الثناء على رسالته التي جاء بها والاعتزاز بفضله وبيان أياديه على الإسلام والإشادة بمحامده ، فقد أدهجوا مدح الرسالة الإسلامية بمديح الرسول ، ولم يفصلوا بينهما في كثير من الأحيان ، لذلك جعلناهما في باب واحد ، نعرض فيه ما قيل من شعر ونبسط نماذج منه على اختلاف الأزمان .

## ٢ - المدح النبوى

كان العرب يعيشون في أطراف الأرض على نظام عجيب وأسلوب غريب ، لا تجمعهم دولة ، ولا يلهمهم سلطان ولا ينظمهم قانون واحد ، يدينون طوراً بالنصرانية وحيناً بالوثنية أو اليهودية ، مشعبة آراؤهم ، مختلفة مذاهبهم ، يخضعون لكسرى أو لقيصر أو لما تحتهما من نفوذ ، ويحيون على عشائر وقبائل تتناحر وتتصادم ، يختلف إليها البؤس والتشريد والبحور ، فكأنها تنتظر زعيماً يجمع شملها وقائداً يفيد من شجاعته ، وإماماً يوحّد بين آرائها . فلما ظهر محمد - صلى الله عليه وسلم - في قريش ودعا إلى وحدة العرب واتحادهم ، واجتمعهم تحت دين واحد وراية واحدة ، لينقذهم من فوضى تشل حياتهم وحروب تستنفد قواهم واستعمار يستلهم ويسترقهم ، هزت دعوته القبائل ورؤساءها ، وبلغت الممالك المجاورة وملوكها ، فوفقت بين مصدقة ومكذبة ، حتى إذا بلغها ما كان عليه هذا الرسول من تعلق بالحق والوفاء والقناعة والتواضع ،



ومن مقدرة في البلاغة والفصاحة والبيان والسياسة ، ومن مكانة في الشجاعة وقيادة الجيوش ، هالها أمره وأذهلها خطره ، فانصرف بعضهم إليه وانصرف بعضهم عنه ، ووقف له شعراء يتصدون للهجوم عليه ، كما وقف شعراء في الدفاع عنه وامتداحه . وقد كان هذا المديح أول الأمر يقتصر على امتداح خصاله وشماله ورسالته ، وهو حي ؛ فلما قضى انصرف الشعراء إلى الثناء عليه وتعداد صفاته والإشادة بالدين والإسلام . ونحن إنما نعد هذا من المديح لأنه يتوجه بكلامه إلى النبي كأنه موجود حي يناديه ويناجيه فيسمعه ويلبيه ، ولأنه يحقق مبادئ هذا الفن ، من تمدح لشجاعته واستحسان لأخلاقه ومزاياه وإعجاب بصباحة وجهه ، فقد قال الصنفدي في شرح لامية العجم يصف المديح : « وما زال الشعراء يصفون الممدوح بالحسن والصباحة والطلاقة ، ويشبهونه بالشمس والبدر والمصبح » وقد رأينا كيف مدح الشعراء ما وكرمهم وأمرأهم وحكامهم ، فوقفوا عند هذه الصفات ؛ ولذلك لن يضيرنا أن هذه القصائد قيلت بعد وفاته ، فهي في مديحه . وأما ما كان من أبياتها في الأسف لفقده والبكاء لذهابه فقد طرحناه لأنه في الرثاء ، وله كتاب مخصوص به .

جاءنا أن النابغة الجعدي أنشأ قصيدة طويلة مدح فيها رسول الله فقال :

أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ إِذْ جَاءَ بِالْهُدَى      وَيَتْلُو كِتَابًا كَالْمَجْرَةِ نِيرًا  
أُقِيمُ عَلَى التَّقْوَى وَأَرْضَى بِفَعْلِهَا      وَكُنْتُ مِنَ النَّارِ الْمَخُوفَةِ أَحْذَرًا

فالرسول جاء بالهدى ودين الحق يتلو القرآن نيرا كالمجرة في السماء ، يأمر بالتقوى والفعل الحميل ، وقد آمن النابغة وقام بالدين خوفاً من النار المخوفة .

وجاءنا كذلك أن الأعشى مدح الرسول بقصيدته الدالية ، يريد بها وجه النبي ، لكن قریشاً صرفته عن لقائه في رواية يعرفها المتأدبون ، ليس هنا محل بسطها ، فانصرف عنه وبقيت القصيدة في مديحه يقول فيها :

نَبِيٌّ يَرَى مَا لَا تَرَوْنَ وَذِكْرُهُ أَغَارَ لَعَمْرِي فِي الْبِلَادِ وَأَنْجَدًا  
لَهُ صِدَقَاتٌ مَا تَغِبُّ وَنَائِلٌ وَلَيْسَ عَطَاءُ الْيَوْمِ مَانِعُهُ غَدًا

وهكذا امتدح الندي والحدود على عادة الجاهليين ، وبسط ما للنبي من ذكر عاطر سار في الأغوار والنجود ، فطاف البلاد وعمم الأقطار ، وله صدقات لا تنقطع ، وعطاء لا يفتر ، يبذل الخير لكل قاصد وطالب . وهذا مديح أشبه بأن يوجه إلى الأجواد والكرماء من رؤساء القبائل وأمراء الولايات ، ليس فيه ذكر للدين والتقوى والأخلاق . ولعل ذلك لأن الأعشى بعيد عن فهم الدين ومبادئه ، أو لعله لم يألَف هذا اللون من المديح الديني ولم يسمع به من قبل ، فلما حاول أن يقول نطق به على عادة الجاهليين كما رأينا في الفصول السابقة ، لا فرق عنده بين زعيم ديني ورئيس قبيلة أو سيد في قومه وعشيرته .

وأما كعب بن زهير فقد مدحه بقصيدة سارت على الزمان ، وقلدها الشعراء على العصور . بدأها بالنسيب الخالص ثم وصف ناقته ، وانتقل بعدها إلى الرسول يمدح ما يحمل إلى المسلمين من قرآن جليل . ويعتذر بعد ذلك ويطلب العفو من النبي لما بدر منه ، فقال :

أُنْبِئْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَوْعَدَنِي وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَأْمُولٌ  
مَهْلًا هَذَاكَ الَّذِي أَعْطَاكَ نَافِلَةً الْـ قُرْآنَ فِيهَا مَوَاعِيظٌ وَتَفْصِيلٌ

فرسول الله كريم متسامح يقبل العفو والمعذرة ، وهو الذي حمل إلى المسلمين هدية كبيرة هي القرآن وفيه المواعظ البالغة وما يحتاج إليه المسلمون في أمورهم ، فبين فضل الرسول بالإشارة إلى عظيم رسالته ، وبين كريم يده بالدلالة على واسع هديته ، ثم انتقل إلى وصف النبي وهيبة مجلسه ومقامه :

لَذَاكَ أَهْيَبُ عِنْدِي إِذْ أَكَلَمَهُ<sup>(١)</sup> وَقِيلَ : إِنَّكَ مَنْسُوبٌ وَمَسْئُولٌ<sup>(٢)</sup>

(١) منسوب : أي مسئول عن نفسك .

من ضَيْغَمٍ مِنْ ضُرَاءِ الْأَسَدِ مَخْدَرُهُ      ببطن «عَشْر» غَيْلٌ دُونَهُ غَيْلٌ<sup>(١)</sup>

فالرسول عنده أهيب من الأسد المخادر المفترس ، يبعث الروح والفرع في النفس ، قد أقام في الغياض فما يلقاه قلب إلا جزع وهلع ، وهكذا جعله في الشجاعة والقوة والبأس حتى ما يوازن به إلا هذا الأسد العظيم في الروعة والهيبة . وقد صدق هذا الوصف قول الإمام علي بن أبي طالب في نعتة ، إن جلساءه كانوا يقعدون منه كأن على رؤوسهم الطير لا يتنازعون عنده الحديث ولا يسفون في المقال لأنهم كانوا يرددون منه ويضطربون بمحضره ، فقلوه هو القول الفصل وما هو بالهزل . وكعب بن زهير بعد أن وصف الرسول قال :

إِنَّ الرَّسُولَ لَنُورٌ يَسْتَضَاءُ بِهِ      مُهَنْدٌ مِنْ سَيُوفِ اللَّهِ مَسْلُوكُ

فهو سيف مطبوع من أشرف سيوف الهند وأفضلها مضاء ، لأنه سيفه الله أرسله إلى العباد باسمه ، ليفصل بينهم ويحكم في أمرهم ، وسله على المشركين وسلطه عليهم ليقطع به دابر الفوضى والشرك . وهذا منتهى المديح العربي القديم ، إذ بسط الكرم والفضل والعفو والتسامح والبأس والشجاعة في شعر متين ملائ بالصور الضخمة والتعابير المتينة ، فجعله سيداً مطاعاً ورئيساً مهيباً ، وإماماً يحمل القرآن إلى البشر ، ويتحلى بخير الشمائل والصفات من تسامح وندي ورحابة صدر .

وحسان بن ثابت كان شاعر النبي حقاً ، امتدحه لصفاته الفاضلة ورسم الدين الإسلامي رسماً موفقاً فقال :

وجبريلُ رسولُ الله      فينا      وَرُوحُ الْقُدُسِ لَيْسَ لَهُ كَفَاءُ

وقال الله : قد أرسلت عبداً      يقول الحق ، إن نفع البلاء

(١) مخدره : مكانه -- عشر : موضع - الغيل : الغيضة .

شهدتُ به فقوموا صدقوه فقلتم : لا نقوم ولا نشاء

وفي هذا بسط حسان ما كان من خير على يد النبي ، ودعا إلى تصديقه والإيمان به فرسمه نوراً يشع على العباد ورسولاً هادياً إلى الرشاد ، يهدي العقول الضالة والأحلام الشاردة ، من يتبعه يرشد :

لَقَدْ نَزَلَتْ مِنْهُ عَلَى أَهْلِ يَثْرِبٍ      رَكَابٌ هَدَى حَلَّتْ عَلَيْهِمْ بِأَسْعَدِ  
نَبِيٌّ يَرَى مَا لَا يَرَى النَّاسُ حَوْلَهُ      وَيَتْلُو كِتَابَ اللَّهِ فِي كُلِّ مَسْجِدِ  
وإن قال في يوم مقالة غائب      فتصديقتها في اليوم أو في ضحي الغد

فهو قد حل بركة على المدينة وأهلها ، وفي ركابه الهدى والسعود ، يتلو كتاب الله في كل مسجد ، وقوله لا بد سائر إلى القلوب تؤمن به وتصديق رسالته وتسير بهديه . وهذا كله مديح ديني يصف الرسالة النبوية وعظمة القرآن ، ويشيد بالإيمان ، ولكنه حين يمتدح شخص النبي يختار الصورة المثالية للرجل في خلقه وفي خلقه ، فيراه أحسن الناس وأجملهم :

وَأَحْسَنُ مِنْكَ لَمْ تَرَ قَطُّ عَيْنِي      وَأَجْمَلُ مِنْكَ لَمْ تَلِدِ النِّسَاءُ  
خَلَقْتَ مَبْرَأً مِنْ كُلِّ عَيْبٍ      كَأَنَّكَ قَدْ خَلَقْتَ كَمَا تَشَاءُ

وهذا إعجاب ليس له حدٌ بجمال الرسول في خلقه ، فهو أجمل الناس طراً لا يستثنى منهم أحداً ، وهو أكملهم ، لا يصيبه عيب ولا يبلغه نقد ، فقد خلا من هذا وهذا ، فكان الكمال المجسم ، وأنخلق المصنئ . وبذلك يبلغ شاعرنا ذروة المديح عند العرب القدماء ، يضيف إليهم مديحه الديني الخالص حين يقول في تلخيص الديانة الإسلامية :

أَعَزُّ عَلَيْهِ لِلنَّبِوةِ خَاتَمٌ      مِنْ اللَّهِ مَشْهُودٌ يُلَوِّحُ وَيُشْهِدُ

وَضَمَّ الْإِلَهَ اسْمَ النَّبِيِّ إِلَى اسْمِهِ      إِذَا قَالَ فِي الْخُمْسِ الْمُؤَذِّنُ : أَشْهَدُ  
وَشَقَّ لَهُ مِنْ اسْمِهِ لِيَجْلَّهُ      فَذُو الْعَرْشِ مَحْمُودٌ وَهَذَا مُحَمَّدٌ  
نَبِيٌّ أَتَانَا بَعْدَ يَأْسٍ وَفَتْرَةٍ      مِنْ الرِّسْلِ وَالْأَوْتَانُ فِي الْأَرْضِ تَعْبِدُ  
فَأَمْسَى سَرَاجًا مُسْتَنِيرًا وَهَادِيًا      يَلُوحُ كَمَا لَاحَ الصَّقِيلُ الْمَهْنَدُ  
وَأَنْذَرْنَا نَارًا وَبَشَّرَ جَنَّةً      وَعَلَّمَنَا الْإِسْلَامَ فَاللَّهُ نَحْمَدُ

فالنبي "كريم" في أفعاله مشرق في خصاله ، عليه طابع النبوة واضح ظاهر ،  
وقد كرمه الله فقرن اسمه إليه ، حين تتلى الشهادة في الصلوات الخمس لكل  
يوم . وجعله منقذاً للعرب جاءهم بعد يأس من الرسل ، وفترة من الضلال  
بالأوثان ، فأثار لهم سبيل الحق وهداهم إلى الخير ، وبشر بالجنة وأنذر بالنار ،  
فبسط الإسلام وعلم الناس كيف يحمدون آلاء الله ونعمه . وما ينى حسان يبسط  
فضل النبي على البرية ويده على العرب ، يعدد مكارمه وأخلاقه ، ويشبهه  
بالهلال في نوره ورحمته للعباد . ويرسم ما له من فضل في النصر والظفر في غزوات  
العرب ومعاركهم وانتصاراتهم على الأعداء . وهكذا جمع حسان في ديوانه سيرة  
الرسول ومفاخره ومحامده وأياديه في السلم والحرب ، في الدين والدنيا معاً .

وظل الشعراء يفعلون كما فعل حسان على مدى العصور ، سواء فيهم من  
تدين أو من لم يتدين ، وقد أنشد أبو العلاء المعري في القرن الخامس في الدين  
الإسلامي وفي الرسول ما يشبه قول حسان على بعد الزمان بينهما فقال :

دَعَاكُمْ إِلَى خَيْرِ الْأُمُورِ مُحَمَّدٌ      وَلَيْسَ الْعَوَالِي فِي الْقَنَا كَالسَّوَابِلِ  
حَدَاكُمْ عَلَى تَعْظِيمِ مَنْ خَلَقَ الضَّحَى      وَشَهَبِ الدَّجَى مِنْ طَالَعَاتِ وَآفِلِ  
وَأَلْزَمَكُمْ مَا لَيْسَ يَعْجِزُ حَمْلَهُ      أَخَا الضَّعْفِ مِنْ فَرَضٍ لَهُ وَنَوَافِلِ  
وَحَثَّ عَلَى تَطْهِيرِ جِسْمٍ وَمَلْبَسِ      وَعَاقِبِ فِي قَذْفِ النِّسَاءِ الْغَوَافِلِ



وحرّم خمرًا خلّت ألباب شربها من الطيش ألباب النعام الجوافل

فمدح الرسول برسالته ، وعدّد الفروض والنوافل ، ولخص أركان الدين من طهارة وعبادة ، وتحريم للخمر وذهاب مع الرشاد والخير . وسار على غراره كثير من الشعراء حتى كان القرن السابع للهجرة ، فوضع محمد بن سعيد البوصيري عدداً من القصائد في مدح الرسول وأطال في بعضها حتى بلغ في الحمزية ما ينيف على أربعمئة بيت ، بسط فيها حياة النبي وفضائله ومزاياه ، ومعجزاته ، ورسم مولده في ليلة غراء ، وضعته فيها آمنة بنت وهب ، فنالت من فخار ما لم تنله النساء ، وشرفت به بنات حواء ، وأتت قومها بأفضل مخلوق ، ثم بسط النسب الشريف ، وذكر خوارق الولادة ، ووصف تداعى الإيوان وانطفاء النار ، وبسط المعجزة الكبرى في القرآن من رقيق اللفظ ورائق المعنى ، كأنها الحب والنوى أعجب الزراع وأدهش القراء حتى حسبوا أنه سحر ، وقد قال في شمائل النبي :

سَيِّدُ ضَحْكِهِ التَّبَسُّمُ وَالْمَشَىٰ يُّ الْهُوَيْنَىٰ وَذَوُّهُ الْإِغْفَاءُ  
مَا سِوَىٰ خُلُقِهِ النَّسِيمُ وَلَا غَيْرُ مَحْيَاةٍ الرَّوْضَةِ الْغَنَاءُ

فهو متبّد في مشيته ، جميل في تبسمه ، خلقه كالنسيم رقة ، ومحياه كالروضة الغناء اثلاً ، وسع العالمين حلماً وعلماً ، فهو بحر خضم زاهر بالمجد والخلق الرفيع ، ولذلك خضعت لدينه الأقوام وسارت إلى رايته الأمم . والقصيدة كلها على هذا النمط من المديح الدينية تصوّر الإيمان والخشوع والتقوى والورع والتشفع والرجاء ، والتعلق بأهداب الدين والفرح بالرسالة ، وهي مهداة إلى سيد الرسالة كباقة من أفكار دينية تتقدم يوم الحشر لتشفع لصاحبها يوم تعجز النفوس وتملح القلوب .

وفي قصيدة أخرى ، ذكر سبب نظمها <sup>(١)</sup> في مدح النبي فقال : إنه قد

(١) رواية ابن شاعر الكوفي في تاريخه .



أصيب بفالج أقعده ، فدعا إلى الله وتشفع ، فلما كان في نومه رأى النبي ففسح وجهه بيده المباركة ، وألقى عليه بردة ، فانتبه فإذا هو قد شفى من مرضه ، فنظمها وسمّاها لذلك بالبردة ، تيمناً وتبركاً . وسارت قصتها فأنشدها الناس كذلك تيمناً وتبركاً . والقصيدة تنيف على ثمانين بيتاً ، فيها صلوات على النبي ووقوف الأنبياء ببابه يلتمسون الرضا ويتشفعون ، وكلهم يعرف حداثه :

وكلّهم من رسول الله ملتصق  
وواقفون لديه عند حدّهم  
غرفاً من البحر أو رشفاً من الدّيم  
من نقطة العلم أو من شكلة الحكيم

ثم يصفه كرجل وبشر فيقول :

فمبلغ العلم فيه أنه بشر  
أكرم بخلق نبي زانه خلق  
وأنه خير خلق الله كلّهم  
بالحسن مشتمل بالبشر متّسم  
كالزهر في ترف والبدر في شرف  
كأنه وهو فرد في جلالته  
والبحر في كرم والدهر في همم  
في عسكر حين تلقاه وفي حشم

وقد جمع البوصيري في هذه الأبيات كل ما قال القدماء في الممدوحين ، فصور جمال خلقه وكرم أخلاقه في حسن وبشر ، وشبهه بالزهر والبدر والبحر والدهر ، وصور هيئته كأنه في عسكر عرمرم وفي حشم كثير . وتحدث بعد ذلك عن معجزاته في إيوان كسرى ونار فارس وبحيرة ساوة ، وتساقط الشهب وسجود الأشجار ، وسير الغمام وصنع الحمام ، ممّا تنافله كتب السيرة . وتكلم عن القرآن ووصف الإسراء ، وعدّد الغزوات ، وختم بالرجاء والدعاء والتماس الشفاعة .

وقصيدة « البردة » هذه ، حفظتها الأجيال الإسلامية في أقطارها ، ورتلتها في مناسباتها الدينية ، وتولتها المطابع في الشرق والغرب ، وشرحها الشارحون منذ

القرن الثامن حتى اليوم شروحاً عدة يعيينا حصرها هنا ، وشطروها وخسوها وسببها . وقد عارضوها مع ذلك على مدى العصور فقلدوا معانيها الجامعة وأبياتها الرائعة ، فكانت سبباً لميلاد خزانة في مديح الرسول عامرة بالكتب والشروح والبديعيات ، ومن أشهرها بديعية ابن حمزة الحموي وقصائد ابن نباتة المصري . وولدت قصص المولد ، تنثر هذه المعاني الدينية وتستعمل صورها ومفرداتها وتتضمن بعض أبياتها .

وهذه القصائد الدينية لا تخرج في مجملها عما نلخصه في كتابه « سحر البلاغة وسر البراعة » (١) من أقوال البلغاء في ذكر النبي حتى عصره قال : « سليل أكرم نبعة ، وقريع أشرف بُقعة ، جاء بأمة من الظلمات إلى النور ، وأفاء عليهم الظل بعد الحُرور ، محمد نبي الله وصفوته ، وخيرته من بريته ، مؤكد دعوته بالتأييد ، ومفرد شريعته بالتأييد . . » إلى آخر ما أورد هذا الكاتب من صفات تعاورها الشعراء والبلغاء .

ولم يخل القرن الماضي من شعراء امتدحوا النبي ، فقد أنشأ محمود سامي البارودي قصيدة دينية سماها : « كشف الغمة في مدح سيد الأمة » جعل فيها سيرة النبي من مولده إلى انتقاله ، وسار فيها نظماً كما سار ابن هشام في كتابه عن حياة الرسول نثراً . وهي متينة التراكيب تذكرنا بشاعر الرسول حسان في معانيها ، والقصيدة ميمية كذلك تتحدث عن الغار والعنكبوت والحمائم في خيال واسع ، ثم تقص علينا غزواته وحروبه والأعلام الذين اشتركوا فيها ، يختتمها بالرجاء والشفاعة والخشوع والخضوع فيقول :

لم يترك الدهر لي ما أستعينُ به      على التَّجَمُّلِ إِلَّا سَاعِدِي وَفَمِي  
هذا يحبّر مدحي في الرسول وذا      يتلو على الناس ما أزجيه من كلمي

فقد وضع لسانه وساعده رهناً لمديح النبي يتلو على الناس محامده ومزاياه

(١) طبعة أحمد عبيد بدمشق سنة ١٣٥٠ هـ - انظر ص ١١ .

ونخصاله وشماله ، ثم يقول :

وإنما هي أبيات رجوتُ بها نيل المُنَى يوم تحيا بذّة الرّمم  
نشرت فيها فريد المدح فانتظمت أحسنَ بمنتشر فيها ومُنْتَظَم

فيرجو كشف غمته ودفع بليته ، لعله يعاود بمديحه على هام السماء ويصبح  
السعد من خدمه فلا يخلد بعد اليوم ولا يضام بعد هذا القول . ومدحه بفصيدة  
أخرى ( جيمية ) افتتحها بالنسيب ، وبسط فيها الرجاء وتشفع بالدعاء بعد  
الستين من عمره ، فهو يرى الخروج إلى مديحه وسيلة من وسائل الشفاء والصحة  
والنجاح وبلوغ الأجداد ، فهدايتته وحدها رفعت البشر وسمت بهم ، وجعلت أمته  
فريدة بين الأمم تعتربه وبرسالته وبعثه في العرب :

هو النبيّ الذي لولا هدايته لكان أعلم من في الأرض كالهَمَج

وأنشأ أحمد شوقي في مديح النبي قصائد عدة منها « الحمزية النبوية » افتتحها  
بذكر ما كان لمولده في تبسم الزمان واستنارة الكائنات ، وبيت النبوة وخلّاق  
الرسول وعلمه وكلامه ، فامتدح بالبشر الذي يلوح على محياه ، وذكر الخوارق  
كما ذكرها الشعراء قبله في نار كسرى وزلزلة العروش والسيجان فقال فيه :

يا مَنْ له الْأَخْلَاقُ ما تَهْوَى الْعُلَا مِنْهَا وما يَتَعَشَّقُ الْكُبَرَاءُ  
زانتك في الخلق العظيم شمائل يُغْرَى بهنَّ ويولع الكرماء

فهو يرسم أخلاقه الكريمة العظيمة في رضاه وغضبه ، في سكوته وفي كلامه ،  
في بيته وأسرته ، ثم ينتقل إلى القرآن فيصفه ويصف الرسول :

يأَيُّهَا الْأُمِّيَّ حسبك رتبة في العلم أن دانت بك العلماء  
الذكر آية ربك الكبرى التي فيها لباعى المعجزات غناء

ويتطرق شوقي بعد ذلك إلى فلسفة القدماء والمحدثين وآرائهم في الاجتماع والسياسة والفصاحة والبلاغة وفضل النبي عليها جميعاً وتفرد به بالسمو والكمال :

الإِشْتِرَاكِيون أَنْتَ إِمَامُهُم لولا دَعَاوَى القَوْمِ والغُلُوَاءِ  
دَاوَيْتَ مَتَّعِدًا وداوَوْا طِفْرَةً وَأَخَفْتُ من بعض الدواء الداءِ  
أَنْصَفْتُ أَهْلَ الْفَقْرِ من أَهْلِ الْغِنَى فالكلُّ في حقِّ الحياة سَوَاءُ  
فلو أنَّ إِنْسَانًا تَخَيَّرَ مَلَّةً ما اختار إلا دينك الفقراء

وشاعرنا وحده بين المادحين أدخل روح زماننا ودلائباته ومذاهبه وآراءه في تصوير النبي ، فكانت قصيدته درساً في الموازنة بين المذاهب والشرائع والقصائد والآراء ، كأنه يتحدث بلسان العصر على أربعة عشر قرناً لم تضيف كلها شيئاً جديداً إلى ما أورد هذا اليتيم الأعمى ، ولم تزد عليه فيما حمل من معجزة ومن فلسفة ، ونختم شوقي قصيدته بالدعاء كذلك كما نختم غيره .

ونظم في ذكرى المولد قصيدة أخرى امتدح فيها الدين والنبي ونظر إليه فيها نظرة قومية ، وأشار إلى بلاغته وجهاده فقال :

وَكَانَ بَيَانُهُ لِلْهَدَى سُبُلًا وَكَانَتْ خَيْدُهُ لِلْحَقِّ غَايَا  
عَلَّمَنَا بِنَاءَ الْمَجْدِ حَتَّى أَخَذْنَا إِمْرَةَ الْأَرْضِ اغْتِصَابَا

فهو يرى في النبي إماماً في الفصاحة ومثالا للخلق الرفيع وفائدة عظيمة وزعماً كريماً ، قاد المسلمين إلى مراتب الظفر والنصر وامتلاك المجد والحاوود والأخلاق . ويتلفت شوقي في قصيدة أخرى فيرى العالم الإسلامي مضطرباً قلقاً فيقول :

فقل لرسول الله يا خير مُرْسِل أبشك ما تدرى من الحسرات  
شعوبك في شرق البلاد وغربها كأصحاب كهف في عميق سُبُباتِ

فشوقي شاعر الدين في العصر الحديث ينظر إلى المسلمين نظرة المسلم القلق

وقد هاله اضطرابهم وحيرتهم ، فرأى أنهم يحتاجون إلى زعيم ويفتقرون إلى كتاب ، وأنهم سيضطرون إلى اتباع مذهب سياسي ؛ فأشار على قومه والأمة الإسلامية أن تعود إلى زعيمها القديم ، منذ أربعة عشر قرناً تتبع مناهجه وترسم خطاه ، وتؤمن بدينه في ذلك الفلاح وفي اقتفائه النجاح ، وليس لداء الفوضى الذي انتشر فيهم وغلب عليهم إلا هذا الدواء الذي التمس في خلق النبي وفي تعاليمه السامية المجيدة .

\* \* \*

والشعراء في الأقطار العربية ما يزالون يرسلون المدائح في النبي ، ويصورون بطولته وكرمه وجمال خلقه وعظمة أخلاقه ، وسمو رسالته ، وهم كذلك يحثون قومهم على اتباع نهجه واقتفاء أثره ، ويتألمون لما هم عليه من فوضى واضطراب وتفكك ، يرون أنها شبيهة بحال العرب قبل الإسلام فلا يجدون لها خلاصاً إلا على يد زعيم يحمل رسالة الإنسانية والعدالة ، ويحطم العبودية في كل صقع ، ويقوم للشرك والظلم في كل مكان ، فيعيد للعرب مجدهم وعزهم ، ويذل أعداءهم ، ويخلصهم مما هم فيه . فترجع إليهم انتفاضتهم القديمة ، وتذكرهم الأمم من جديد بالقوة والبأس والخلود ، وتخشى بأسهم وتجعلهم في مصاف الشعوب الحرة المحترمة .

ذلك ما يردده شعراء العرب اليوم ، يمدحون النبي لكل ذكرى ويستعيدون تاريخه وسيرته لكل مناسبة ، إذا ادلهم الخطب وكشرت النواثب ؛ ولهذا نجد في كل ديوان شعراً في النبي ، يشيد باسمه كما أشاد القدماء منذ حسان ، وهو كثير لا سبيل لإحصائه أو عرضه ، في الشام والعراق ومصر ، فقد أنشد أنور العطار ، وعمر أبو ريشة ، وأحمد مظهر العظمة ، وعدنان مردم قصائد كثيرة نشرتها الصحف وحملتها الدواوين إلى القراء ، فيها مديح الأجداد ووصف المحامد والدعاء والرجاء بكشف الكرب ودفع اللثام عن الشام ، ورسم المعارك والغزوات ، وتصوير اليتيم وجهاده في جزيرة العرب لمحو الشرك ونشر التوحيد ، حتى انتصر

الوحيّ الحديد ، وفازت العقلية الحديدية ، وقامت للعرب دولة جديدة في مشارق الأرض ومغاربها .

وفي مصر أنشد كثير من الشعراء في مدح النبيّ ، وقد نظم الشاعر المصري محمد عبد الغنى حسن ديواناً كاملاً في مديحه سَمَّاه « من وحي النبوة » (١) لا نعرف له مثيلاً في الأدب العربي ، فقد جعله تمجيداً للرسول في صفحات شعرية تبين عن صفاته وسيرته وأجمل ما في حياته ومعجزاته ، كأنه يعدّها نواة للمحنة الكبيرة في الإسلام ! ولعلّ غيره فعل مثله ولم يبلغنا ما نظمته في النبيّ .

ولن نوفي حق هؤلاء الشعراء في عرض شعرهم ونقده وبيان ما له من ميزات جديدة في مديح النبيّ ، لأن ذلك يطول ، وإنما نكتفي بالإلماع إليه ، والإشارة إلى كثرته ووفرته ؛ تحدثنا عنه لنبرهن أن هذا اللون من الأدب لم ينقطع في الشعر العربيّ منذ حسان (٢) ، وأن الشعراء اتجهوا إلى الدين وإلى النبيّ كلما ضاقت بهم الدنيا وأحاطت بهم الأحداث ونالتهم المصائب والكوارث ، فعادوا إلى الماضي يفخرون ويعتزون ويستحثون الهمم للاقتباس منه ، والسير على هديه ، لعلّ الأجداد تعود إلى أمتنا من جديد ، وتلفنا الرفعة من كل جانب ، وتحيط بنا المفاخر في المستقبل .

---

(١) مكتبة الآداب - القاهرة .

(٢) الذين يريدون أن يعرفوا ما كان للمديح النبوي من ثروة ضخمة كبيرة يحسن أن يعودوا إلى كتاب « المجموعة النبهانية في المدائح النبوية » لإسماعيل النبهاني .



## الفصل الخامس

### المديح الدينى السياسى

#### مديح آل البيت

١

إذا كان الشعراء قد امتدحوا الرسول لصفاته ونبوته ، فقد امتدحوا آلله وبيته لمقامه ورفعته بين البيوت . وقد دفعهم الألم والحرمان فى كثير من الأحيان إلى الالتفاف حول البيت ، فأظهروا عاطفة الدين ممزوجة بعاطفة السياسة — إذا صح التعبير — ، واتخذوا من المديح الدينى لآل البيت وسيلة سياسية للسلطة بالخلافة والحكم ، والدعوة إلى الثأر والانتقام والتنديد بالظلم كما يصورونه حين يرون أنه انصب على هذه الأسرة وهذا البيت ؛ حتى لقد بالغ بعضهم فى هذا المديح فاستعمله استغلالاً واسعاً وقلبه إلى رثاء وتشيع للبيت وآله ، وأصبح هذا التعلق سبيلاً إلى التفرق ، وغدا هذا الحب سبيلاً إلى البغض لأن السياسة دخلته ، وما دخلت السياسة شيئاً إلا غيرت من معالمة وأفسدت من أهدافه . لذلك أنشد الشعراء فى المفاضلة بين الصحابة والأصفياء ، وقالوا فى حق الخلافة ؛ وألحوا على صور الفواجع التى ألمت بأهل البيت كمقتل الحسين وإحياء ذكره فى مآتم تستعاد فيها ذكرى المأسى ! فعجى الشعر فى الدواوين كما جرت الدماء فى تلك المنازعات من قبل ، وظل كذلك حتى اليوم تهتز له الأسماع فى كثير من الأصقاع وينشد فى المحافل ، حتى لكأننا فى الأيام الأولى للإسلام ، نشهد الفاجعة من جديد ، ونحياها فى أسى وتظلم وبغض وحقد ، يحمل الأبناء فكرة الانتقام من أحفاد لا يملكون إلا الأسف لما وقع بين أجدادهم فى القديم .

والشعراء الذين دخلوا في هذا اللون من المديح أصاب كثيراً منهم عنت  
ولأكراه ومصائب ، ولكنهم لم يأبهوا لذلك كله وحسبوا أنه نضال وجهاد يقاتلون  
بألسنتهم ويلقون ما يلتقي المجاهد في سبيل عقيدته ومبدئه .  
وقد مدح الكهيت ، وسار شعره في حب الرسول وأهله ، وكأنه لا يخاف  
أن يثير بني أمية حين ينتقدهم ويتهمهم بأنهم نهبوا الخلافة واستلبوها ، فهي  
من حق الهاشميين ، وسميت قصائده بالهاشميات ، مدح فيها أخلاق بني هاشم ،  
ووصف منهم كرم الشئائل وجميل الخصال ، وقال إنهم الحماة الكفاة والولاة  
الأساة ، وهم الأسد في الوغى ، وهم على ذلك ساسة العرب لا يشبهون في ذلك  
ساسة الأمويين من الخلفاء :

لَا كَعَبْدِ الْمَلِكِ أَوْ كَوَلِيدٍ      أَوْ سَلِيمَانَ بَعْدُ أَوْ كَهَشَامِ

وتناول الأمويين بالهجاء ورأى أنهم لا يصلحون للخلافة ولا الحكم ، فهم  
يعاملون الرعية معاملة السائمة يستغلونها ويستخدمونها في أغراضهم . والكهيت  
ذو نفس طويل في هاشمياته عاطفي في مدحه لأهل البيت ، يجد في قرابتهم من  
الرسول تقرباً من الخير والنعمة :

بَنِي هَاشِمٍ رَهْطُ النَّبِيِّ فَإِنِّي      بِهِمْ وَلَهُمْ أَرْضِي مَرَارًا وَأَغْضَبُ

والرسول خير حي وميت من بني آدم غيبته المقابر ، وخير جنين وخير  
مسترضع :

خَيْرٌ مُسْتَرْضِعٍ وَخَيْرٌ فَطِيمٍ      وَجَنِينٍ أَقَرٌّ فِي الْأَرْحَامِ  
وَعِلَامًا وَنَاشِئًا ثُمَّ كَهَلًا      خَيْرٌ كَهْلٍ وَنَاشِئٍ وَغِلَامٍ  
لَوْ فَدَى الْحَيِّ مِيتًا قَلْتُ نَفْسِي      وَبَنِيَّ الْفِدَا لَتَلَكُ الْعِظَامِ

وهو يجد فيه مجد العرب وسناءهم ، وأنه أمين الله في الناس كلهم ، ثم ينتقل

بعد مدحه إلى بكاء القتلى من أهل البيت والتفجع عليهم والتوجع لمصائبهم ،  
وأخصهم الحسين ، وينصرف إلى تصوير حكم الأمويين وسوئه وفساده ، ينعى  
عليهم الضغائن والأحقاد وينتهي إلى القول :

بأيّ كتاب أمّ بياية سنة ترى حبّهم عاراً على وتَحَسَبُ  
فما لي إلّا آل أحمد شيعة وما لي إلّا مشعب الحق مشعبُ

فهو لا يرى العار في حبّ آل البيت وإنما يراه في البغض ، فيتشفع ويعلن  
ذلك ويراه الحق المبين والطريق الواضحة .

والفرزدق على مديحه لخلفاء الأمويين ، نقلت إلينا كتب الأدب أنه مدح  
آل البيت كذلك وتشيع ، فنسبت إليه قصيدة في الإمام زين العابدين ، هذا  
مطلعها :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيتُ يَعْرِفُهُ والعَلُّ والحرمُ  
هذا ابن خيار عباد الله كلّهم هذا التقى النقى الطاهر العلمُ  
إذا رأيته قريشٌ قال قائلها إلى مكارم هذا ينتهى الكرمُ  
ينمى إلى ذروة العزّ التي قصرت عن نيلها عرب الإسلام والعجمُ

وبعد أن يصف موطن الإمام ومراح صباه من أماكن مقدّسة ، يصف  
-حياءه ومهابته وجمال طلّعه وإشراق غرّته وعظيم كرمه وواسع إحسانه إلى الناس ،  
وينتقل إلى آل البيت لينشد فيهم :

مِنْ مَعْشَرِ حَبْهِمْ دِينٌ وبغضهم كفرٌ وقربُهم منجى ومعتصمُ  
إِنْ عُدَّ أَهْلُ التَّقَى كانوا أئمتهم أَوْ قِيلَ مَنْ خَيْرُ أَهْلِ الْأَرْضِ قَبْلَهُمْ  
لا يستطيع جواد بعد غايتهم ولا يدانيهم قوم وإن كرموا

هم الغيوث إذا ما أزمة أزمّت والأسدُ أَسَدُ الشرى والبأسُ محتدمٌ

فجعل حبهم من الإيمان وبغضهم من الكفر ، وفي القرب منهم نجاة والبعد عنهم هلاك ، فهم أئمة أهل التقى وخير أهل الأرض قاطبة ، لا يلحق بهم جواد ولا يدانيهم قوم ، فهم السحاب في النجدة والكرم ، وهم الأسود في البأس والشدة ، وليس بعد هذا مطمع لمادح في آل البيت .

وعاش دعبل في عهد الرشيد فمدح آل البيت ، وعجب كذلك لقتل الأحرار من بنى هاشم ، وعاب على العباسيين أن يعاملوا العرب كما عاملوا الروم والخزر ، فقال :

قَتْلٌ وَأَسْرٌ وَتَحْرِيقٌ وَمَنْهَبَةٌ      فعل الغزاة بأسر الروم والخزر  
أرى أمية معذورين إن قتلوا      ولا أرى لبنى العباس من عذر

فإن كان من عذر لبنى أمية فليس ثمة عذر لبنى العباس . ورسم دعبل مقتل الحسين كما وصف غيره ، وعدّد فواجع أهل البيت ، وصور مدارسهم قد خلت من التلاوة ، ومنازل وحيمهم أصبحت مقفرة العرصات :

مَدَارِسُ آيَاتٍ خَلَّتْ مِنْ تِلَاوَةٍ      ومنزل وحى مقفر العرصات

وهو يعدّد هذه المنازل ويذكر هذه القبور فيعرض لمرايع العزّ ومواطن الألم والفجيعة ، ويبكى ويستبكي ، ثم يعود إلى أهل البيت ليظهر حبه وغراره بهم :

مَلَأَمَكَ فِي أَهْلِ النَّبِيِّ فَإِنَّهُمْ      أَحِبَّائِي مَا عَاشُوا وَأَهْلُ ثِقَاتِي  
بِنَفْسِي أَنْتُمْ مِنْ كَهُولٍ وَفَتِيَةٍ      لفكّ عناة أو لحمل ديات

ويمدحهم كما مدح الجاهليون رجالاتهم فيرى فيهم فكّ العناة وحمل الديات ، وأظهر حبهم في عهد يعاقب فيه المحبّ ويكافأ الشانئ .

## ٢

ولما كان القرن الرابع الهجري واستولى الحمدانيون على الجزيرة وحلب ، جعلوا من هذه الربوع منابر لمَدح أهل البيت ومناثر للمطالبة بالثأر ، فهم شيعة كلهم ، وشعراؤهم حشدوا قواهم لمَدح الشيعة والتفجع لماضيهم ولما حلَّ بهم ، فيهم كشاجم والسري الرفاء ، والأواء الدمشقي ، وأبو فراس الحمداني ، والصنوبري ، والخالديان ، ودواوينهم تغص بهذا المدح وتمتلئ بهجاء العباسيين ، تردّ على شعرائهم وتناقض قصائدهم ، ثم تنشئ في مدح الأئمة والاستشفاع بهم عند الله ، فيقول شعاعهم أبو فراس الحمداني (١) :

شافعي أحمد النبي ومولا      يَ عليّ والبنت والسبطان  
وعليّ وباقر العلم الصا      دق ثم الأمين ذو التبيان  
وعليّ محمد بن عليّ      وعليّ والعسكري الداني  
والإمام المهديّ في يوم لا ين      فع إلا غفران ذي الغفران

وهذا الشعر شبيه بالنظم التاريخي ، لما حشر فيه صاحبه من أسماء وأعلام كأنه أرادته للشيعة صلاة روحية ، يردّدون ما قال ، ويترحمون على الأئمة ، ويتفجعون لما أصاب القتلى . وهو في ديوانه يوازن بين آل البيت وبين العباسيين ، ويورد فضائل الأولين وما يأخذه على الآخرين :

لا يَغْضَبُونَ لِغَيْرِ اللَّهِ إِنْ غَضِبُوا      ولا يُضَيِّعُونَ حُكْمَ اللَّهِ إِنْ حَكَمُوا  
تبدو التلاوة من أبياتهم أبداً      وفي بيوتكم الأوتار والنغم

(١) انظر في معرفة الأئمة وبيان أسماهم وأنسابهم ، ديوان أبي فراس طبعة بيروت ١٩٤٤

فيصف تقوى آل البيت وهو العباسيين ، ويأخذ عليهم أنهم لم يكتفوا الشتم  
عن بنات رسول الله ، ولم يعترفوا بالبيعة ولم ينحرفوا عن الغدر ، فقد كان على  
أولى الخلفاء بها بعد النبي . وهذا كله شعر سياسي في لغة عصرنا اليوم ، لكنه  
قبلي عصبي لعصره ، يشبه عصبية الجاهلية وحميتها في القربى والدم وشائج  
الرحم ، وهو كذلك يقول :

أهوى الذي يهوى النبي وآله أبداً وأشناً كل من يشناه

والصنوبري من أطول الشعراء الحمدانيين نفساً في مدح أهل البيت ، فهو  
يخصهم بقصائد طويلة جداً ، يزور فيها قبور يثرب يحيي جدث الرسول ووصيه ،  
ويمدحه مدحاً عظيماً :

ومن مضى خاتم الرس ل والسراج المنيرا  
ومن به بشر الرك ب من قریش بحيرا

ثم ينتقل إلى حمزة والعباس ، ويذكر دور « الغرى » وقبور العراق ، ويفيض  
في مقتل الحسين ، ويصف كربلاء والفواجع والمآسي ؛ ولن نسهب في عرض  
شعره فهو شبيه بالحمدانيين في هذا . وإنما نتقل إلى الشريف الرضى ، لرى  
عنده مدح آل البيت ، في شعر فيه فخر واعتزاز وعصبية ، وذكر للقبور  
والأماكن كالطف والغرى وطوس وسامرا وبغداد وغيرها ، يقول :

قُبُور تنطف العبراتُ فيها كما نطف الصَّبِيرُ على الرَّوَّابِي<sup>(١)</sup>  
فلو بخل السَّحَابُ على ثراها لَذَابَتْ فَوْقَهَا قَطْعُ السَّرَابِ

وفيها امتداح للنبي وفاطمة والسبطين والوصي كما فعل الصنوبري وأبو فراس  
سواء بسواء . وهو يتوجع للفواجع ويذم بنى أمية ، ويذكر الثأر والانتقام ويندد

(١) التفسير : السحاب المتكاثف .



بالمقاتلين فقد خفروا ذمة النبي وأسأوا إلى آل بيته :

بَاعَتْ بَصَائِرَ دِينِهَا بِضَمَالِهَا      وَشَرَّتْ مَعَاطِبَ غِيَّهَا بِرِشَادِهَا  
جَعَلَتْ رَسُولَ اللَّهِ مِنْ خَصْمَانِهَا      فَلَبِئْسَ مَا ذَخَرَتْ لِيَوْمِ مَعَادِهَا

وهكذا حوّل الشعراء مديح آل البيت إلى قصائد باكية حزينة تشبه الرثاء والتفجع وتحث على الانتقام والثأر ، فأعادوا سيرة الباطنية في العصبية والقبلية ، وامنحوا فضائل القتلى .

ومهيّار الديلمي لا يقل عن زملائه في هذا الميدان ، في إثارة العصبية ، حين مديح آل البيت ، فقد غلب على شعره الرثاء والبكاء كذلك ، وتوجع ، وجعل القضية دينية صرفة :

هَذِي قَضَايَا رَسُولِ اللَّهِ مَهْمَلَةٌ      غَدْرًا وَتَمَلُّ رَسُولِ اللَّهِ مُنْصَدِعٌ

وقد تجمع من هذه القصائد في آل البيت كتب كثيرة ومجاميع عديدة ، عمل القدماء على جمعها وتبويبها كما فعل اليماني ، حين ألف كتابه الكبير « نسمة السحر في ذكر من تشيع وشعر » . وعمل المحدثون على دراسة هذا الأدب وبسط تاريخه ، وعرض ما وقع للشيعة ، فسالت في كثير من أصقاع العرب كلبان والعراق كتب متعددة تثير الخطب وتكمل الطريق . ومن المعاصرين شعراء يسرون في مديح آل البيت سيرة سياسية يمدحون من يتولى منهم الحكم أو يمسك بزمام الملك ، ويخلصون لهم إخلاصاً كبيراً يشبه المطالبة بحكم هذه السلالة وعودتها إلى دفة الخلافة والإمارة . وقد عقد الكتاب في هذا الأدب فصولاً كثيرة تنظر إليه من ناحية السياسة ، وننظر إليه هنا من ناحية الدين والسياسة جميعاً ، لا نفرّق بينهما ، يعتمد أحدهما على الآخر في حججه ودلائله ، حتى ما يمكن أن نفصل بينهما .

## الفصل السادس

### المديح السياسي

٢

بسطنا في الأبواب السابقة ما كان من مدح لملوك والخلفاء والأمراء والوزراء والقواد والوجهاء ، وعرضنا لمديح العلماء والكتاب ، وألمنا بطرف من مديح النبي ، ونظرنا من خلال الشعر إلى النواحي الأدبية في المديح من وصف للشجاعة والكرم وأصالة النسب وقوة العارضة وشدة الذكاء ، وبسطة العلم والجاه ، ووقفنا عند الحدود الفنية في ذلك ، لم نعرض لما وراءها من قصد سياسي إلا حين كتبنا في مديح آل البيت ، فرأينا فيه أهدافاً عصبية وقبلية ودولية — كما نقول اليوم — إلى جانب العاطفة الدينية التي اعتمد عليها هذا اللون من المديح كأساس للمطالبة وعنوان للحجة .

ونحن حين ننظر في الأبواب الأخرى من الناحية السياسية العرفية نجد فيها كما وجدنا في مديح آل البيت دوافع خفية وظاهرة إلى عمل سياسي وغرض دولي . فالنابغة حين امتدح مليكة النعمان بن المنذر انتصر لدولة دون دولة ومملكة دون مملكة ؛ لأن الغساسنة كانوا أعداء المناذرة ، ومديح فريق نخشم يعدّ في عرف السياسيين اليوم خصومة للفريق الآخر ، وهو اندياز معسكر دون معسكر ، كما تقول الصحافة المعاصرة . وكذلك مديح قبيلة دون قبيلة حين تشتد الخصومة بينهما وتستعر الحروب ، وتقدم الأيام شواهد على هذه الحزازات والأحقاد والضغائن ، وتأييد القبيلة تشجيع للثورة على أخصائهم وبحث للحرب والانتقام . فإذا عرفنا أن أيام العرب تجاوز الألف عدداً كما قال بعض

المؤرخين - أدركنا أىّ شعر فى المديح السياسى سفح الشعراء وأسألوا فى قوافى الدواوين ، يردّده أهل القبيلة فى السلم تهيئة للحرب وفخراً بالنصر وبعثاً للهمم الحاملة ، فالزعيم فى القيادة كالملاك فى الدولة لأنه سيد قوده وحاكمهم ، وإليه المعاد فى أمور السياسة والحكم ، وهو وحده صاحب الكلمة النافذة . ومصلحته هى مصلحة القبيلة ، ولا شأن للفرد إذا ذكرت الأسرة والعشيرة والدولة . وحدود القبيلة المؤقتة هى حدود الوطن ، ترسمها رماحهم وتكسبها نصالهم وتبنيها مواضعهم ، والدفاع عنها دفاع عن الوطن .

ولما كان الإسلام ، وقف حسان يمدح النبيّ فى دينه الجديد وسياسته الجديدة لإدارة الدولة ، ووقف خصومه يقاتلون سياسياً فى شعرهم ويردون على شعراء حزب النبيّ - إذا صحت التسمية - لذلك كان مديحه من جانب سياسى منصباً على حقه فى زعامة الأمة وإنقاذها من الفوضى والكفر ، والسير بها إلى التنظيم والإيمان ، فهو يشيد بالفتوح الإسلامية ويمتدح الدولة الجديدة القائمة لانتصاراتها فى فتح مكة وفى بدر ، أو يرد على خصومه من الشعراء السياسيين الذين انتصروا لحزبهم كذلك . وقد وقعت بعد انتقال الرسول قضية المبايعة فدعا الشعراء لمرشحيهم فى الحكم كما نقول اليوم ، وامتدح كلّ منهم صاحبه ، وراح يدلى بحججه فى حقه بالخلافة .

وقد حبس الخطيئة فأرسل يستعطف عمر بن الخطاب قائلاً :

أَنْتَ الْإِمَامُ الَّذِي مِنْ بَعْدِ صَاحِبِهِ      أَلْقَى إِلَيْكَ مَقَالِيدَ النُّهْيِ الْبَشَرِ  
لَمْ يُوَثِّرْكَ بِهَا إِذْ قَدَّمَوكَ لَهَا      لَكِنْ لَأَنْفُسَهُمْ كَانَتْ بِكَ الْأَثَرُ

فهو يرى أن البشر ألقت إليه مقاليد النهى بعد أبي بكر ، وآثروه بها ، لأنه أنفع المسلمين وأجدرهم وأحقهم ، فخاض بشعر بسيط فى خضمّ النزاع السياسى والحزبية المستعرة آنذاك ، وكأنه فحش الخلاف وقضى فيه بقوله هذا . وظلت هذه الخصومة فى الحجاز حتى انتقلت إلى العراق والشام بعد مقتل عثمان ، فقال

كعب بن جعيل يصف الحال :

أَرَى الشَّامَ تَكَرَّرَهُ مُلْكُ الْعِرَاقِ      وَأَهْلُ الْعِرَاقِ لَهُ كَارُهُونَا  
وَكُلُّ لَصَاحِبِهِ مُبْغِضٌ      يَرَى كُلَّ مَا كَانَ مِنْ ذَلِكَ دِينَا  
وَقَالُوا : عَلِيُّ إِمَامٌ لَنَا      فَقُلْنَا : رَضِينَا ابْنَ هَنْدٍ رَضِينَا !

وظهر بعد هذا شعراء من الخوارج كرهوا من عليّ قبول التحكيم بينه وبين معاوية ، فدخلوا من باب السياسة الواسع وألحوا على هذا المعنى ، ولكنهم لم يمدحوا فئة بعينها ، وإنما جاهدوا في إبداء آرائهم السياسية ، وأقلقوا أمن الدولة الأموية كما أقلقها الشيعة سواء بسواء . ولكن الشيعة كانت تمدح جانباً وتذم جانباً ، وتميل دائماً إلى بيان موضوع الوراثة وحقّ عليّ في الخلافة ، كما قال الكميت :

يقولون : لم يورث ولولا تراثه      لقد شركت فيه بكيلاً وأرحبُ

ومدح كثير عزّة الأئمة من قریش وصارحنا بمذهبه السياسي فقال :

أَلَا إِنَّ الْأَئِمَّةَ مِنْ قُرَيْشٍ      وَلَا الْحَقُّ أَرْبَعَةٌ سَوَاءٌ  
عَلِيٌّ وَالثَّلَاثَةُ مِنْ بَنِيهِ      هُمْ الْأَسْبَاطُ لَيْسَ لَهُمْ خَفَاءُ

وهكذا بسط أسماء المرشحين للولاية والخلافة ، وطبعي أن نجد في الأحزاب الأخرى شعراء يمدحون مرشحيهم كذلك ، منهم زبيرى الهوى كابن قيس الرقيات حين يمدح مصعب بن الزبير فيقول :

إِنَّمَا مَصْعَبٌ شَهَابٌ مِنَ الدَّ      تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الظُّلُمَاءُ  
مُلْكُهُ مُلْكٌ قُوَّةٌ لَيْسَ فِيهِ      جَبْرُوتٌ وَلَا بِهِ كِبَرِيَاءُ

فيدعو إلى ملكه وخلافته ، ويرشحه للمنصب السامي الرفيع ، لأنه قوة من

الله ، ولأنه شهاب منير فيه جبروت ، ليس عنده كبرياء ، وهذا بيان حزبي موجز في حكم قليل ، ينصر مصعباً ويمهد له الحكم والرياسة .

ومن الأحزاب كذلك سفيان بن يذهبون إلى حكم معاوية وأسرته بعد أن قتل عثمان ، وأصبح أهل بيته أولياء دمه ، وعلى رأسهم معاوية ، فهم يقومون بأعباء الحكم ، ينصرهم ماض في قريش عريق ، وهم من أسرة النبي فهم وارثوه ، لذلك قام الشعراء بمدحهم ودعمهم والدعوة لهم ، كأن يقول أعشى ربيعة في ذم الزبيرين ومدح الأمويين :

إن الخلافة فيكم لا فيهم ما زلتم أركانها وثمالها

ويقول النابغة الشيباني في عبد الملك حين هم بخلع أخيه وتولية العهد لابنه الوليد :

أما قُرَيْشٌ فأنْتَ وارِثُها      تكفُّ مِنْ غَرَبِهِمْ إِذَا طَمَحُوا  
لابنك أُولَى بِملك والدِه      ونجمٌ مَنْ قَدْ عصاك مطرَحٌ

ونلاحظ البساطة في عرض الأسباب والحجج والوثائق والأدلة لدعم الخلافة والوراثة والولاية ، فهي لا تعدو أن تكون تقريراً لا تعليلاً في غالب الشعر ، كما يقول أرباب السياسة ، ولكنهم شعراء لم يحدقوا هذا الفن ، فهم قريبو العهد به ، يظنون أن قولهم حجة ، وأن شعرهم بيان سياسي فيدلون به وهم على مثل الثقة بأن السامع معهم في التصديق والتحقيق . والشعراء الذين مدحوا سياسياً في عهد بني أمية كثر ، منهم عدى بن الرقاع وهو من دمشق ، وأبو صخر الهذلي وعبد الله بن الزبير الأسدي ، وغيرهم ، تجد في شعرهم حلم معاوية في الحكم ، وحزم عبد الملك ، وقسوة هشام وعيث يزيد بن عبد الملك . يعرضون لطريقة حكمهم ، ويبسطون سلوك الخلفاء خلال ذلك كله ؛ فيقول الفرزدق في عمر ابن عبد العزيز :

لَمْ يُلْهِهِ عُمَرَةُ عَيْنَ يُفَجِّرُهَا وَلَا النَخِيلَ وَلَا رَكْضَ الْبَرَاذِينِ

ويصفه بأنه يختلف عن غيره من الخلفاء في جدّه وتقواه ، وحرصه على أموال الرعية ، وبسطه العدل والقسطاس بين المسلمين . وهذه حجة قوية يدلي بها الفرزدق في بيان سيرة سياسية لخليفة أمويّ .

وقد دخل هؤلاء الشعراء كذلك فيما كان بين قيس وتغلب منذ القديم من عصبية وتنافس في توجيه السياسة . وكان الأنخل أشدهم براءة في إثارة النعرة وإيقاظ الفتنة وبعث الدفين من العواطف ، فدارت بينه وبين جرير قصائد كثيرة حول هذا الموضوع ، فكان جرير لسان قيس ، ووقف الأنخل مع تغلب بنى قومه . وقام الفرزدق بنصيبه في هذه المعركة السياسية ، فعاشت الإقليمية — كما نقول اليوم — واستيقظت العصبية الجاهلية ، وعاد الناس القهقري يسمعون شعراً كان يسمعه أجدادهم من قبل ، وأصبح الشعر في خدمة الأمير والقائد والوالى على مختلف الأقاليم الإسلامية . ذلك لأنهم كانوا يمثلون الخليفة في حكمه ، وينطقون باسمه في سياسته . وقد رأينا مديحاً هؤلاء في أبواب سابقة ، كالحجاج وابن الأشعث ويزيد بن المهلب وقتيبة بن مسلم ، حتى إن بعض الشعراء لزم والياً أو قائداً أو أميراً ، كما يازم خليفة أو ملكاً ، فازداد بذلك المديح السياسى وتشعب ، وكثرت أغراضه وتنوعت أساليبه ، وقبل في هؤلاء من المديح الإدارى والسياسى ما لو قيل في الحكام المعاصرين لاثابوا عليه الصحابة والأنصار ، فقد قال جرير في الحجاج :

مَنْ سَدَّ مُطَّلَعَ النِّفَاقِ عَلَيْكُمْ	أَمْ مِنْ يَصُولُ كَصَوْلَةِ الْحِجَّاجِ
أَمْ مِنْ يَغَارُ عَلَى النِّسَاءِ حَفِيزَةً	إِذْ لَا يَثْقَنُ بَغْيَةَ الْأَزْوَاجِ
إِنْ ابْنُ يَوْسُفَ فَاعْلَمُوا وَتَيَقَّنُوا	مَاضَى الْبَصِيرَةِ وَاضِحَ الْمَنَاجِ
مَنْعَ الرُّشَا وَأَرَاكُمْ سَبِيلَ الْهَدَى	وَاللَّصْنَ نَكَلَهُ عَنِ الْإِدْلَاجِ



وهكذا صور الحجاج خصما للنفاق السياسى ، صائلا فى حكمه ، قد أزم  
النساء لعهدده خطة الحفاظ على الأسرة والشرف فى البيت ، فكان واضحا فى  
منهاجه يمنع الرشوة ، ويحول دون السرقة والصوصية . فن من الحكم لا يطمح  
اليوم إلى مثل هذه الرتبة وإلى مثل هذا المديح ؟ !

## ٢

وظل الشعراء العباسيون على هذا الغرار يمتدحون الحاكم لسياسته ، فكان مسلم  
ابن الوليد يثنى على القواد والأمراء لحنكتهم فى تسيير الأمور بحنكة ودهاء ،  
وعملهم فى بسط الأمن ، وجباية المال ؛ فقال فى منصور بن يزيد وآله :

كانوا الملوك بنى الملوك وراثَةً      والملك فيهم لا يزال يدورُ  
أعطاهم ذلّ المقادة قيصرُ      وجبى إليهم خروجه سابورُ

وأبو العتاهية مثله فى ذلك يرى فى ممدوحه جدارة بالحكم ، ويراه وحده  
أهلا للخلافة فيقول فى المهديّ :

فلم تك تصالح إلا له      ولم يك يصلح إلا لها  
ولو رامها أحدٌ غيره      لزلزلت الأرض زلزالها

والشعراء بعده كانوا يرون فى الأمراء والخلفاء أحق الناس بالحكم والإمارة  
لما يبذلون من عدل وما ينفقون من شجاعة وذكاء فى تسيير دفة الأعمال ، كما  
فعل أبو تمام والبحتري وغيرهما . والمتنبى امتدح حاكم حلب ثم رحل عنه إلى  
نخسبه حاكم مصر فوجد لكل منهما دليلا على جدارته فى الحكم وموضعه من  
السلطان . وقد قال البحتري فى إسحق بن إبراهيم :

الله أيديكم وأعلى      ذكركم بالنصر يقرأ فى السماء ويكتبُ

ولأنتم عُدَدُ الخلافةِ إن غدا      أو راح منها مجلسٌ أو موكبٌ  
والسابقون إلى أوائل دعوة      يرضى لها ربّ السماء ويفضّبُ

فرأى أن الله يؤيد هذه السلالة ويُعَلِّي ذكرها ، ويجعلها أهلاً للخلافة ،  
وبذلك ينصر الدعوة ويرضى لأصحابها ويفضّب لأعدائها . وابن هانيّ الأندلسي  
وجد لبني هاشم حقّاً في الحكم على مئات السنين :

بني هاشم قد أنجز الله وعده      وأطلعَ فيكم شمسهُ وهي دالكُ<sup>(١)</sup>  
ونادت بشارات الحسين كتائبٌ      تمطى سراعاً في قناها المعاركُ

فأعاد سيرة الحسين والتأثر له ، ودعا لهذه الفئة السياسية أن تظل في الخلافة  
وأن يظل حكمها مبسوطاً على الناس ، كذلك ثابر الشعراء في عصبيتهم القبلية  
ينزعون إليها كما لمسوا السياسة أو أرسلوا شعرهم في الملوك والحكام سواء في الشام  
أو في مصر والعراق ، وكان هذا الشعر يثور وينتصر حين تكثُر الدويلات ويسود  
الانتقام ويغلب التنافر والتنافس في الحكم ، طوراً بين حلب ودمشق وبغداد  
وفارس ، وطوراً بين مصر والشام أو بين الشيعة والسنة على اختلاف العصور .

\* \* \*

فلما كان العصر الحديث وقامت الآستانة ، نشأ في المديح السياسي ميل  
إلى العروبة طوراً وإلى الإسلام أطواراً . فسار شوقي في ركاب الآستانة وامتدح  
الخلفاء العثمانيين لعلمهم بمدون رواقهم على الإسلام ویرساون رأيتهم في نصره  
والدعوة له ، وقد ضربنا الأمثال لهذا الشعر يمتدح به شوقي عبد الحميد حيناً  
والخديو حيناً آخر ، وينتصر لمصطفى كمال ثم يمتدح رجالات مصر ممن كانوا  
يسعون في استفلالها وتفردتها بالحكم — كما رأينا في فصل سابق .

ولما كانت الحرب العالمية الأولى ، وانفصلت الدول العربية عن الآستانة ،

(١) دالك . مصر ، غائب زال عن كد السماء .

قام الشعراء بمدح الحكام والملوك ونصر سياستهم في بغداد حيناً ، وفي القاهرة حيناً آخر ، وفي دمشق أحياناً . وقيل في فيصل الأول وحكمه ما قيل من شعر يعيد إلى الذكرى عصبية العرب وخلافة الإسلام . وقيل في ملوك مصر أكثر من هذا ، حتى طمع آخرهم في خلافة المسلمين وجمعهم إلى ركابه . ينظرون إلى عرشه في القاهرة ، وقال الشعراء بمدحونه لهذا ويشهدون له بنسب قرشي هبط إليه على ألسنة الوحي ! ولكننا لن نبسط القول فيه فقد ذهب مع التاريخ وغابت الأشباح . وقد قامت نورات في العالم العربي وحكم رجال خلالها فتانهم مدح الشعراء لعظيم سياستهم وجميل حكمهم والإشادة بديمقراطيتهم ، وتوزيعهم العدالة بين الشعب ، وحربهم ضد الأدوية الثلاثة من جهل وفقير ومرض . وانقلب المدح السياسي إلى قواعد غريبة ، فيها عكوف على حقوق الفرد ، وبيان لملاقة الحاكم بالمشكوم ، ودستورية الحكومة . ولم يقف المدح السياسي خلال هذه الحقبة الماضية على الملوك والحكام والخلفاء ، وإنما انتصر للقادة السياسيين والزعماء المخلصين ، فامتدح سعد زغلول في مصر ولإبراهيم هنانو في الشام ، وامتدح غيرهما من الزعماء والأنصار ، وما نزال نسمع في المديح ونقرأ في الصحف مديحاً للساسنة فيه إشادة بمزاياهم لتعلقهم بأهداب الوطن والدفاع عن حماه والذود عن إحياءه ضد كل مستعمر غاصب ، حتى قامت في السنين الأخيرة مدائح لأحزاب معينة تقوم ضد المشروعات أو الأحلاف ، وأصبحنا نعيش كما يعيش الغرب على شعر سياسي في المديح ، يهيئ للانتخابات ، ويمهد لزعامات ، ويوطئ الأكتاف لتسلم الحكم . والأمثلة على هذا متوافرة تقوم بيننا صباح مساء ، نقرأها ونمرّ بها عابرين ، وهي أجدر أن تجمع وأن تبوّب لأنها تعيد ذكرى ماضينا ، وذكرى عصبياتنا القديمة بين بكر وتغلب ، ويمانية ومضرية وسفياينة ، فهي تعيش بالآلفاظ القديمة وتنظم بالأفكار الجديدة ، وتكتب بأسلوب العصر السياسي ، فتسير في مواكب القرن العشرين ، وتقلد الغرب في الدعاوة للأحزاب وأصحابها وزعمائها .

## الفصل السابع مديح الأوطان والبلدان

### ١ - الأوطان :

أحب العربي الأرض التي عاش فيها سواء أكانت قاحلة أم منبتة ، جميلة أم غليظة ، لأنها رافقت عهداً من عهود حياته وعرفت شطراً من أيام عمره ، فحن إليها وهو بعيد واشتاقتها وهو غريب ، فأنشد فيها شعره حنيناً وحرفة ، وامتدح فيها الخير والبركة والنعيم لا لأنها خير وبركة ونعيم حقاً . بل لأنها قطعة من عمره محسب ! وفي الشعر العربي كثير من هذا المديح بدأ في الجاهلية ولم ينته إلى اليوم . وإنما تطورت صنفحاته وتغيرت نظرة الشاعر فيه ، لكنها لم تخرج عن الحنين والحب والمدح والدفاع عن الأرض .

ولعلنا حين نستمع إلى أحمد بن يحيى ينشدنا أحب بلاد الله إليه ، فتساءل عن هذه البلاد ، نريد أن نعرف ما منعج وما دار سامي ؟ :

أحبّ بلاد الله ما بين منعج إلى دار سامي أن يصوب سحابها  
بلاد بها حلّ الشباب تمائمى وأول أرض مسّ جلدي ترابها

فتعرف أن أحب أرض إليه تلك التي مسّ ترابها جلده أول ما مسّ ؛ فهي وطنه وهي موضع حبه وتقديره . وهو في ذلك لا يخرج عن التعريف البسيط الصحيح للوطن ، لا تدنياه فلسفة ولا منطق ، ولا تحده قوانين ، ولا تفرضه حقوق أو واجبات . وابن الرومي يربطنا تعريفاً بوطنه وبلده حين يقول :

بَلَدٌ صَحِيحٌ بِهِ الشَّيْبَةُ وَالصُّبَا وَلَيْسَتْ ثُوبُ الْعِشْرِ وَهُوَ جَدِيدُ

فإذا تمثل في الضمير رأيتـه وعليه أفنان الشباب تـميدُ

وذلك تصوير جميل للوطن ، يتمثله الشاعر في الضمير ، فيرى الشباب  
وما إلى الشباب من عيش نصير وحياة شابة . ويقول كذلك في أسباب حب الوطن :

وَحَبِّبَ أَوْطَانَ الرِّجَالِ إِلَيْهِمْ مَارَبُ قَضَائِهَا الشَّبَابُ هُنَاكَ  
إِذَا ذَكَرُوا أَوْطَانَهُمْ ذَكَرْتَهُمْ عُهُودَ الصَّبِيِّ فِيهَا فَحَنُّوا لِذَلِكَ

فالوطن مرتع الشباب وموطن الازدائد الأولى ، ومحل الحب الأول يألفه الفتى  
أبد الدهر ، لا ينقلب عنه ولا يتحول ، وهم يزيدون على وصف الوطن ما فيه  
من شجر وعصاه ، ونبات ومياه ، جميلة كانت أم ضئيلة . فالشاعر يقول :

تَمْتَعُ مِنْ شَمِيمِ عَرَارِ نَجْدٍ فَمَا بَعْدَ الْعَشِيَةِ مِنْ عَرَارِ

فالعرار هذا النبات الطيب . يملأ أنف الشاعر ورثتيه وهو في نظره أضعف  
من النخيل على شطآن النيل ، فالديار محبوبة لأنها مألوفة الأحبة وموطن الأصدقاء  
وموضع الذكريات . ولا يكون الحب للربوع إعجاباً بالحجر أو الصخر والشجر  
والماء والزهر والنور والظل والشعاع . وإنما يكون لما ينعكس منها في النفس ،  
وينسكب في الروح . ويجرى مجارى الدم ، فتتجسم كما يريد الخيال . وتسمو  
كما إلى الحب ، وهذا هو الوطن ، بقربه النعيم ، وفي بعده الجحيم ، كما يقول  
الشاعر :

إِذَا دَنَسَ الْمَنَازِلُ زَادَ شَوْقِي وَلَا سِيمًا إِذَا دَنَسَ الْخِيَامُ  
فَلَمَحَ الْعَيْنُ دُونَ الْحَيِّ شَهْرٌ وَرَجَعُ الطَّرْفُ دُونَ السَّيْرِ عَامٌ

والذين يحبون الوطن ينصرفون عنه وفي الكبد تصدّع . ويقبلون إليه وفي  
النفس شفاء .

وقد تبدلت نظرة العربي إلى تعريف الوطن على مدى الأجيال . ففي القرن الثالث . قال أبو تمام يشرح حبه لاوطن العربي فيقول :

بالشَّام قومي وببغداد الهوى وأنا بالرقميتين وبالفسطاط إخواني  
وما أظنُّ النَّوى ترضى بما صَنَعْتُ حتَّى تبغني أقصى خُرَّاسانِ

ونحن اليوم ننظر بمعنى أبي تمام إلى هذا الوطن العربي الكبير من أقصى بغداد إلى الفسطاط ومن الرقمتين إلى الشام ، ونحسد الجاهلي في الدفاع عن خيامه ، يثير الحرب عواناً من أجلها . ويشتد في النخوة والاستماتة في سبيلها ، فكم سالت دماء لحماية الحمى والذباد عن الحياض ، وكم قامت حروب على الحدود للدفاع عن أرض الوطن . وكم اشتاق الشعراء ديارهم وبكوا لبعدهم عن أرض الوطن ، كما فعل أبو فراس في القدماء ، وشوقي في المحدثين . فقد تغرب كل منهما مضطراً ، وأنشد كل منهما في حب الوطن والحنين إليه وامتداحه . وشوقي قضى مدة النفي في الأندلس . فأرسل يصف وطنه في قصيدة جميلة :

وطني لو شغلتُ بالخلد عنه نازعتني إليه في الخلد نفسي  
وهذا بالفؤاد في سلسبيل ظمأً للسواد من (عين شمس)  
شهد الله لم يغيب عن جفوني شخصه ساعة ولم يعخل حسبي

فاشتغل بوطنه أي شغل ، لا تلهيه عنه جنان النعيم . وقد هفا إلى منزله بعين شمس فلم يغيب عن جفونه ساعة ، ولم يخل من التفكير فيه وتلمس الخيال في الوصول إليه . ولا يقل عنه محمود البارودي في مدح مصر وهو بمنقاه بجزيرة ( سيلان ) حين يتنسم الهواء فيرى فيه نسيم مصر :

ونسمة كشميم الخلد قد حملت رياء الأزهير من ميث وأجرع<sup>(١)</sup>

( ١ ) الميث : جمع ميثاء وهي الأرض اللينة ، والأجرع : الأرض السهلة .



يا هَلْ أَرَانِي بِذَاكَ الْحَيِّ مُجْتَمِعاً بِأَهْلٍ وَدَيٍّ مِنْ قَوْمِي وَأَشْيَاعِي

فنسيمها كنسيم الجنة يحمل ريا الأزهير من أرض وطنه الطرية اللينة ، ويتساعل هل يجتمع إلى أهله ويرى أشياعه وأنصاره ومحبيه من أهله وبني قومه . والشعر الوطني كثير في أدبنا العربي يعيننا حصره وعرضه في هذه الصفحات القليلة ، فقد مرت بالوطن العربي هزات عنيفة على مر الأجيال ، نخرجوا من جنان النعيم ، فغادروا الأندلس في القديم وذكروا في كل مناسبة أو لكل حادثة أرضهم الحبيبة . والحدايق الغناء التي كانت تلف منازلهم والقصور الشام التي كانت موضع أنظارهم ، والهواء العليل الذي كان يغذي صدورهم ، فبكوا بكاء لا ينقطع ، وأرسلوا فيها من الشعر ما لا يحصى ، والناس يذكرون قصيدة الرندي في مدح الأندلس ورثائها ، ويعرفون ملازمته للذكرى الخالدة .

ونكبوا بهجمات الترك والتتار والمغول ، وهجروا ديارهم لمجمعات هؤلاء البرابرة ، وبكوا في قصائد عامرة بعدهم وحجهم ، ومدحوا أوطانهم مديحاً تسيل فيه المدامع وتختلط فيه الزفرات بالأشواق وعاطر الثناء .

وهجمت عليهم جيوش الغرب في القرن الثالث عشر للاميلاد باسم الدين واحتلت جزءاً من أراضيهم ، فهجروا وسافروا وتغربوا ، ومدحوا كذلك ما خافوا . ولا تسئل عن قصائدهم حين عادت هذه الجيوش ثانية ، باسم الحضارة والمدنية والانتداب ، فهاجر الأحرار وأرسلوا مديحهم في الوطن وحب الديار بما يملأ الصفحات ثناء عاطراً على الغوطتين ومشارف بردى وقاسيون ، وشطآن دجلة والنيل .

وضاقت نفوس كثير منهم بالحكم العثماني فهاجروا إلى ديار العالم الجديد ، ولكن قلبهم ظل عالماً بنصخور لبنان وينابيع الشام وطرق يبرود وحمص وأرسل شعراء المهجر في مديح وطنهم الأول مديحاً فيه غصة وحنين وإكبار واحترام . وأما الهزة الأخيرة لأهل فلسطين ، فقد قال فيها الشعراء من سكانها وغير

سكانها ما يتضاءل دونه الشعر الماضي ، فأنشدوا في مديحتها كذلك وهم يمزجون الحنين بالألم وهول الفاجعة . ونحسب أن هذا الشعر الوطني الذي يتغنى به أهل المشرق والمغرب جديد في نظمته وشيأله وتعبيره . قد أخذ عن الشعر الغربي شعور أهل الغرب بحب الوطن . حتى لكأنه يقف له أو يقلده أ يترجمه .

\* \* \*

## ٢ - البلدان :

تعلق الشعراء منذ القديم بحواضر معينة فامتدحوها بشعرهم ، وكان من ذلك ديوان ضخيم . تسيل فيه عواطف الحب والإعجاب والحنين ، ويطفح بوصف الأنهار والربى والجوامع والساحات والأبنية والأماكن فيها . فقالوا إلى مكة والمدينة . وقالوا فيهما شعراً كثيراً هو أقرب الأشياء إلى الشعر المديني لما يظهر فيه من حب للكعبة وتمديد لروضة الرسول ، وذكرى ولادة المجد وانبعاث النور . وقالوا في بغداد كثيراً ، لأنها ظلت موطن الملك ومحط الأنظار ومصنع التاريخ الإسلامي خلال قرون عدة . فقال شاعرهم ابن زريق :

هيئات بغداد الدنيا بأجمعها      عندي وسكان بغداد هم الناس

وقال فيها شاعر مفلس يصفها في غرابة :

سقى الله بغداد من بلدة      حوت كل ما لذ الأنفوس  
ولكنها منيسة الموسرين      كما أنها حسرة المفلس !

وقال فيها شاعر آخر يفضلها على الشام من قصيدة :

تنام بها عين الغريب ولا ترى      غريباً بأرض الشام يطعم في الغمض

ولن نستنفد هنا أجمل ما قيل فيها . فكاه جميل تعجده في تاريخها وفي الكتب

التي تشيد بمحاسنها . وتستطيع أن تقع على شعر كثير في كل بلدة سكنها شعراؤنا ، وتجد بعضه في معجم البلدان لياقوت ، أو في كتب فضائل البلدان ، فقد ألف فيها القدماء ، وجمعوا محاسن الأقوال وأطايب الشعر والنثر ، وأكثر هذه الكتب مطبوع قريب المتناول ، في فضائل حلب ودمشق وبغداد ومصر ومكة والمدينة وغيرها من المدن مما نذكره وما لا نذكره . ولو جُمع الشعر الذي جاء في مدحها لأرّبى على ديوان كبير في هذا الباب .

فقد قال الشعراء في مدح همدان على شدة بردها وزمهيرها ، وقالوا في هراة لخصبها وتفاحها ونرجسها ، وقالوا في بخارى والشاش ، كما قال أبو فراس في الموصل وحلب ، وقال كشاجم في مدح مصر :

كأنها الجنة التي جمعت ما تشتهي الأعين والأنفيس

وقد اشتهر الصنوبري بمدح البلدان ، فأشاد بحلب ووصفها في قصيدة طويلة ، رسم فيها جامعها وسورها وساحاتها وسياديتها وحاراتها ، مما عرضنا لبعضه في كتاب الوصف ، لدقة ريشته وخصب قريحته ، فهو يقول فيها :

أنا أحمى حلباً دا راً وأحمى مَنْ حَمَاهَا  
أَيَّ حسن ما حَوَّتْهُ حلبٌ أو ما حَوَّاهَا  
فاخِرِي يا حلب المدُّ ن يزد جَاهُكَ جَاهَا  
فلعمري إنْ تَكِ المدُّ ن رِخاخاً كُنْتَ شَاهَا

يرى الحسن فيها فيفاخر بها مدن العالم ، وهي في نظره شاه الشطرنج والمدن الباقية رِخاخ فيه . ويمتدح دمشق كذلك فيرى الدنيا فيها ، تفيض بها جداول الماء خلال حدائق موشاة ، تكللها بالفواكه في أبهى المناظر :

صَفَتْ دُنْيَا دِمَشْقَ لِسَاكِنِيهَا فَلَسْتُ تَرَى بَغِيرَ دِمَشْقَ دُنْيَا

ولم يقف الشعراء القدماء عند وصف عام للمدن وإنما تغلغلوا في صميمها ،  
فرسموا أنهارها وجبالها وأوديتها وقصورها ، وبرع الأندلسيون في ذلك براعة  
لا يسبقهم فيها شاعر مداح . فلكل نهر قصة ، ولكل بلد فضيلة ومكانة ، تجد  
بعضه في كتاب « الروض المعطار » عن جغرافية الأندلس ، فتسمع لابن  
عبد ربه وابن خفاجة ، وابن درّاج ينشدون أروع الشعر في جمال البلدان والثناء  
على هوائها وإقليمها ومناظرها .

\* \* \*

والشعراء المحدثون مدحوا البلدان كذلك ، فأثنوا على ما رأوا في الوطن وغير  
الوطن ، فقال شوقي في مدح باريس ، والنيل ، وبردى ، ودمشق ، وزحلة ،  
ولبنان ، والآستانة ، وأسبانيا .  
ومن قوله في دمشق :

قَالَ الرَّفَاقُ ، وَقَدْ هَبَّتْ خَمَائِلُهَا      الْأَرْضُ دَارُ لَهَا الْفَيْحَاءِ بُسْتَانُ  
جَرَى وَصَفَّقَ يَلْقَانَا بِهَا بَرْدَى      كَمَا تَلْقَاكَ دُونَ الْخَلْدِ رِضْوَانُ

فوصف مدخل دمشق والحمائل من يمين وشمال تحف بالوافد وتلقاه  
فكأن الدنيا دار واسعة وبستانها ( الفيحاء ) ، وبردى يشق الطريق مسرعاً  
ليرحب بالزائر الكريم ، كأنه رضوان في جنان الخلد ، ومن قوله في بيروت :

لبنان والخلد اختراع الله لم      يوسم بأزين منهما ملكوته  
هو ذروة في الحسن غير مرومة      وذرا البراعة والحجى بيروته

فهو يجعل لبنان مقروناً إلى الجنه من أجمل ما أبدع الله ، لأنه ذروة في  
الحسن ، وعاصمته رأس في البراعة . ومدح مطران مسقط رأسه بعلبك من لبنان  
وأنشد في الثناء عليها قصيدة عامرة . وقد شاقه الحين إليها ، ومدح عادل  
الغضبان بلده حلب ، وقد طال مقامه في مصر واشتد حنينه إليها فلما استقبلته

عانقها بهذه الأبيات :

حتى بَدَتْ حَلَبُ حَسَنَاءَ لَا بَسَةَ      تَوْباً أَغَرَّ بَوْشَى اللَّهِ مُزْدَانَا  
تمشأت لى سلطاناً وقامتُها      تاجاً يتيه به عزاً وسلطانا  
تحكى حداثتها حققت منازلها      ببحراً سحيق المدى بالسفن والآنا

ثم يصف المآذن فى قلب هذا البحر السحيق ، ويرسم هذا البلد القديم ،  
وقلعة فى قلبه كتاج يتيه على مفرق الحاصرة . تشهداً على العز والسلطان ،  
ويرى أنه سافر من وطن إلى وطن « يا بارك الله فى القطر بن أوطانا » .

ومدح على محمود طه مدناً فى الغرب . وأنشد محمد عبد الغنى حسن  
فى مديح كثير من المدن الأوربية عرفها وأقام فيها . فعاج بالذكرى إليها بملاً  
الحنين نفسه . فصاغ فيها ذوب عاطفته ورقيق شعره .

ومدح كثير من شعرائنا مدناً فى البلاد العربية كالبصرة وبغداد وقرى لبنان ،  
كما مدح شعراء المهجر منبت عزهم وولاد عبقريتهم . وقد جرى قلمنا فى عرض  
قصائدهم لكتاب الوصف . فلن نعيد القول هنا وإنما نشير إشارة عابرة إلى أن  
المدح تناول عند العرب الأحياء وغير الأحياء . حين استطاعوا أن يتخيلوا هؤلاء  
قريباً منهم يناجونهم كالأحياء . أو ينحشوا الجماد ينكلم ويسمع . وقد  
تعلق شعرهم بالرؤساء والأمراء والوزراء والعلماء ، سعيّاً وراء الشهرة حيناً ،  
أو طواهاً على أبواب الوجهاء فى كسب المال . أو تعبيراً عن عاطفة دينية . أو  
إظهاراً لشعور التشيع . أو مشاركة فى السياسة ، أو ثناء على الأوطان ، وإشادة  
بعماد البلدان .

فہرست

الصفحة

[illegible]



رقم الإيداع	١٩٩٢ / ٥٧٠٨
الترقيم الدولي	ISBN 977-02-3757-4

١ / ٩٢ / ١٥٨

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)



## مجموعة فنون الأدب العربي

لقد قصد من هذه المجموعة أن تجلو للقارئ العربي ألواناً من الفنون الأدبية التي عالجها الأدب العربي في مختلف أقطاره وعصوره . فهي تقف أمام كل فن أدبي فتعالجه في جزء أو أكثر من هذه السلسلة التي سيجتمع فيها محصول وافر من فنون الأدب المختلفة التي تكون في مجموعها ذلك الهيكل الأدبي الضخم الذي شيدته العربية في تاريخها الطويل . .

وفضل هذه المجموعة أنها تعالج الأدب العربي لا على طريقة السنين ، ولا على طريقة التقسيم إلى عصور كما ألفنا في كتب التاريخ الأدبي . . . ولكنها تعالج الأدب على مدى ما اتسع فيه من فنون . . . فللمقامة موضوع ، وللقصة موضوع ، وللغزل موضوع ، وللوصف موضوع . . . وهكذا ستكبر هذه المجموعة على قدر ما في الأدب العربي من فنون .

صدر منها :

- في الفن الغنائي : الغزل (جزءان) ، الرثاء ، الوصف ، المديح ، الفخر والحجاسة ، الهجاء ، المؤشحات والأزجال .
- في الفن القصصي : المقامة ، التراجم والسير ، الرحلات ، الترجمة الشخصية .
- في الفن التمثيلي : المسرح .
- في الفن التعليمي : النقد ، الخطب والمواعظ ، الحكم والأمثال

تحت الطبع :

- في الفن الغنائي : الزهد والتصوف .
- في الفن القصصي : الملحمة ، القصة ، الحكاية والأقصوصة .
- في الفن التمثيلي : الفاجعة والمأساة ، الملهاة .
- في الفن التعليمي : منظومات الشعر .